معالجة القرآن لنفوس المصلحين

سورة آل عمران

معالجة القرآن لنفوس المصلحين

سورة آل عمران

أحمد بن يوسف السيد




بسم الله الرحمن الرحيم

جدول المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقطع الأول من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾	٩
المقطع الثاني من سورة آل عمران: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾	١٩
المقطع الثالث من سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾	٣٢
المقطع الرابع من سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾	٤٠
المقطع الخامس من سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ...﴾	٥٩
المقطع السادس من سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ...﴾	٧٢
المقطع السابع من سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾	٧٩
المقطع الثامن والأخير من سورة آل عمران: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾	٨٤
خاتمة:	٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلّ اللهم على نبينا محمدّ وعلى آله وصحبه أجمعين،

أما بعد:

فإن من أعظم نعم الله ﷻ أن حفظ لنا الوحي الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، وأن جعل هذا الوحي شاملاً في الهداية، فلم تقتصر هدايته على الجوانب السلوكية ولا على الجوانب التشريعية أو العقدية.

بل كانت الهداية التي يتضمنها هدايةً شمولية، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وإنّ من أعظم أدوار المصلحين ومشاريعهم التي ينبغي عليهم القيام بها: إعادة مركزية الوحي والاستهداء به وتفعيله، خاصةً في الأبواب والموضوعات التي يكثر فيها الاضطراب أو تمسّ إليها الحاجة في كل زمنٍ بحسبه.

ومن يتأمل في زماننا هذا يجد أن من أعظم الموضوعات التي تمسّ الحاجة فيها إلى مرجعية الوحي: موضوع المنهج الإصلاحي ومعالم طريق الخَلاص لهذه الأمة من الشدائد والكربات والرزايا التي تمرّ بها، وهذا الموضوع من الموضوعات التي اعتنى بها الوحي عنايةً ظاهرة، وبابه الأساسي في الوحي هو باب الاعتبار، أي: قياس الشيء بنظيره، وإلحاق الفرع بأصله.

وذلك أن الله ﷻ قد قصّ علينا في هذا الكتاب أحوال الأمم ومعالم طريق الأنبياء في التعامل معهم، وبيّن لنا سُبُل الإصلاح في ثنايا هذه القصص، ثم

أمرنا بالاعتبار والنظر والسير في الأرض وأخذ العبر، ولأجل ذلك فإن الذي يظفر بحسن التفقه في هذا الباب القرآني فإنه يظفر بباب عظيم من أبواب الاستهداء بالوحي في هذه القضية الكبرى التي تُشغل واقعنا اليوم.

وأحمد الله ﷻ أن يسّر لي العناية بهذا الباب عبر مجموعة من المواد المكتوبة والمرئية، والتي انتفعتُ بها كثيراً قبل أن ينتفع بها غيري، وكان من ضمن هذه المواد: (أنوار الأنبياء، والمنهاج من ميراث النبوة، وبوصلة المصلح، والسيرة النبوية للمصلحين)، وها أنذا أكتب في هذا الموضوع كتاباً جديداً يتناول الآيات القرآنية التي أنزلها الله ﷻ في شأن غزوات النبي ﷺ ودعوته وإصلاحه، وأكثر ما أعتني من هذه الآيات بالآيات التي فيها الخطاب لأصحاب النبي ﷺ والتي يربّيهم الله ﷻ من خلالها ويزكّيهم ويصلح نفوسهم ويعالجها، ولذلك ابتدأتُ بآيات سورة آل عمران المتعلقة بغزوة أُحُد، وهي من أعظم المواضع القرآنية التي تحقق هذا المعنى، وعنونتها بـ (معالجة القرآن لنفوس المصلحين)،

وكنت قبل ذلك قد قدمت سلسلة مرئية بهذا العنوان، غير أنني أنبّه إلى أن هذا الكتاب يختلف في مضمونه عن تلك السلسلة المرئية، فليس هو تفريغاً لها ولا إعادة صياغة لتلك المادة، وإنما هو كتابة جديدة أمليتها إملاءً خاصاً لهذا الكتاب، وقد جعلت هذا الجزء مقتصراً على آيات سورة آل عمران المتعلقة بغزوة أُحُد، وسأُتبعه بعون الله وتيسيره بأجزاء أخرى أتناول فيها آياتٍ أخرى بنفس الطريقة ونفس المنهج ونفس العنوان.

هـذا وأسـأل الله ﷻ أن يغفـر لي ويرحمنـي ويهديني ويسـددني، وأسـأله أن يجزي مـن أمليتُـه هـذه الإملاءات خير الجـزاء، كما أسـأله أن يبـارك في هـذا الكتـاب وأن يتقبلـه وأن ينفـع بـه، إنـه هو السـميع العليم.

أحمد بن يوسف السيد

إسطنبول – تركيا

٨/ ٤/ ١٤٤٥

الموافق لـ

٢٣/ ١٠/ ٢٠٢٣



سورة آل عمران

المقطع الأول:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ
هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ
نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟
وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ
عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟
خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

[آل عمران: ١٢١ – ١٢٨].

قوله ﷻ:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

الفوائد:

الأولى: أن الله ﷻ يحب أن يرى استعداد عباده المؤمنين قبل مواجهة الباطل وأهله، وذلك أنه قد ذكر التفاصيل التي قام بها النبي ﷺ وأصحابه قبل نزولهم إلى ساحة المعركة في أُحد. ومما يتفرّع عن ذلك: أهمية أن يستشعر المصلح مراقبة الله له واطلاعه عليه في مختلف خطواته الإصلاحية التي يعملها، وهذا

الاستشعار من شأنه أن يجعل المصلح ربّانياً في مسيره، وفي خطواته وأعماله.

الثانية: أهمية اتخاذ الأسباب والتخطيط المبكّر قبل مواجهة الباطل وعدم الاستهانة بالأعداء، وذلك لأن النبي ﷺ أخذ يجهّز المؤمنين ويُبوِّئُهم مقاعدهم للقتال؛ استعداداً للمواجهة مع مشركي قريش في معركة أُحُد.

الثالثة: أن النبي ﷺ كان يقوم بنفسه بالدور القيادي التنفيذي المرتبط بتجهيز المؤمنين وتهيئتهم لمواجهة الباطل، وهكذا ينبغي أن يكون ورثته ﷺ من قادة المصلحين، بأن يكون لهم دورٌ عمليٌّ تنفيذي في إدارة المواجهة مع الباطل والتهيّؤ له.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

الفوائد:

الأولى: حين يعزم المصلح على سلوك الطريق الإصلاحي ويبدأ عمله في نصرة الإسلام، فإنه قد يَعرِضُ له من الأسباب ما يؤدي به إلى التوقف والفشل، كما حصل لهاتين الطائفتين المؤمنتين إذ همّتا أن تفشلا، ولأجل ذلك فإن على المصلح أن يظلّ محاذراً محترزاً من أسباب الفشل التي قد تُقعده؛ فهاتان الطائفتان المؤمنتان كانتا مع رسول الله ﷺ، وكان فيهم من الأبطال والشجعان من فيهم، ومع ذلك عَرَض لهم عارض الفشل، والذي قيل إنه بسبب انسحاب المنافقين من الجيش قبل بدء المعركة، وهذا فيه أثرُ المخذّلين على نفوس المصلحين.

الثانية: في قوله ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أنّ السبب الأعظم في إزالة العوارض النفسية المؤدية للفتور والفشل عن المصلحين هو تثبيت الله لقلب المؤمن، والذي يكون بسبب سابقة الإنسان الصالحة وصدقه مع ربّه فيشكر الله له ذلك فيثبته، والفائدة العملية من ذلك: أهمية أن يكون للمصلح -قبل دخوله في ميادين المواجهة مع الباطل- من الإيمان والصدق والتوكل على الله ما يكون سببا لتثبيت الله له.

الثالثة: أن من أهم أسباب استمرار المصلح في طريقه هو التوكل على الله ﷻ، كما في هذه الآية ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، فصدق التوكل على الله من أهم أسباب الثبات والاستمرار على الطريق.

قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

الفوائد:

الأولى: أهمية تذكّر أيام الله ونعمه وآلائه على عباده المؤمنين، وأن يكون هذا التذكر سبباً في الثبات عند الأزمات، فإن من أعظم ما كان يثبّت الصحابة في ميادين المواجهة مع الباطل هو ما رأوه من أيام الله وما شهدوه من أقداره ونعمه عليهم في الميادين السابقة، ولذلك كانوا يتنادَونَ يوم حُنين بـ «أين أصحاب السَمُرَة»[1]، وهي الشجرة التي بايعوا النبي ﷺ تحتها بيعة الرضوان، فإنّ تذكّرهم لتلك البيعة -مع أنها كانت قبل حنين بسنوات- كان من شأنه أن

(١) رواه مسلم: (١٧٧٥).

يكون سبباً لثباتهم يوم حنين. وهكذا في هذه الآية يذكرهم الله بنصره لهم يوم بدر مع كونهم كانوا أقلّ عدداً وأضعف عُدّة، وهذا يجعل في نفوسهم الإيمان بأن الذي نصرهم في بدر قادرٌ على أن ينصرهم في غيره.

ومن الثمرات العملية في ذلك أن المصلح كلما كان له أيّامٌ في نصرة الإسلام وفي رؤية معيّة الله ﷻ والصبر والتضحية والابتلاء، كان ذلك أدعى لثباته في الشدائد القادمة.

الثانية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ في هذه الآية أن الشكر لا يكون بمجرد اللسان وإنما يكون بتحقيق التقوى بالقلب واللسان والعمل، كما في قوله ﷻ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ [سبأ: ١٣]، ومن المهم أن يستحضر المصلح ذلك ليكون سبباً له في عدم الاغترار بالإنجازات، فيديم شُكر الله على نعمه بمزيدٍ من التقوى، فإذا نصره الله في ميادين المواجهة مع الباطل؛ زادَ في تقواه، مستشعراً أنّ هذه التقوى طريقٌ إلى الشكر، وإذا أتمّ الله عليه نِعَمَهُ في تعلّم دينه والتفقه فيه -أو في غير ذلك من المقامات الصالحة- فإنّه يزيد في تقواه ليكون من الشاكرين، وهذا فيه وقاية من الغرور والعُجب.

الثالثة: أن على المصلح ألا ينسى بداياته الضعيفة وأحواله التي كان فيها ذليلاً فقيراً محتاجاً، وما أكثر ما ينسى العاملون تلك البدايات التي كانوا فيها قلّة متفرقين ضعفاء، فيغترّون بالإنجازات التي تتحقق لهم أثناء الطريق، والله ﷻ في هذه الآية يذكّر أصحاب نبيه ﷺ بحالهم يوم بدر إذ كانوا أذلّة.

قوله ﷻ:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

الفوائد:

الأولى: أن الله ﷻ يحب أن يطمئن قلوب الذين آمنوا، ويحب أن يثبتهم حين يواجهون أعداءهم، وهذه الطمأنينة والسكينة التي يؤيد الله بها عباده يأتي بعضها قبل البلاء والمواجهة ويأتي بعضها الآخر أثناء الشدة والبلاء والمواجهة. فهناك طمأنينة وسكينة تنزل عند الترقّب والخوف من بأس الأعداء وكيدهم، وهذه قبل المواجهة، وهناك سكينة وطمأنينة تأتي عند وقوع الـمَخُوف وعند نزول الشدة، وكلّ ذلك حصل يوم أُحد، ففي هذه الآية يطمئن الله الذين آمنوا ويثبتهم في ما ذكره عن نبيه أنه قال للمؤمنين: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ ثم قال لهم: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾، فالتبشير بمعية الله للمؤمنين ونزول الملائكة كان من جملة الطمأنينة التي أيّد الله بها المؤمنين قبل وقوع المخوف.

الثانية: أن نزول الطمأنينة والسكينة على قلوب المؤمنين في سياق نصرة الإسلام هو من أعظم التأييد الذي ينبغي أن ينتظروه وأن يفرحوا به، فالتأييد الإلهي والعون الرباني لا ينحصر في تهيئة الأسباب المادية والملموسة، وإنما

أعظم التأييد هو التأييد ذو الأثر القلبي الباطني، فإن الشأن كل الشأن في ثبات القلب وسكينة النفس، وهي الدافعة لثبات القدم عند لقاء الأعداء، فينبغي على المؤمن أن يستحضر ذلك وأن يفرح غاية الفرح إذا أيده الله بهذه الطمأنينة فهي من أعظم جنده ﷻ.

الثالثة: أن هذه الطمأنينة التي نزلت على قلوب المؤمنين كانت نتيجة البشرى بأن الله سيُؤيدهم بملائكته، وهذه البشرى لم تقع موقعها في قلوبهم إلا باليقين، لأنهم لم يروا بعدُ شيئا في هذه المعركة، وإنما اطمأنت قلوبهم على ما بشّرهم الله به، وإضافة إلى ذلك فإن هناك معنى لطيفاً ذكره ابن عاشور ؒ في طبيعة هذه البشرى وأثرها، فقال ؒ: (فبشرهم الله بكيفية النصر الذي ضمنه لهم بأنه بجيش من الملائكة، لأن النفوس أميَلُ إلى المحسوسات، فالنصرُ معنى من المعاني يَدِقُّ إدراكُهُ وسكونُ النفس لتصوره بخلاف الصور المحسوسة من تصوير مدد الملائكة ورؤية أشكال بعضهم)(١).

والمقصود أن المبشرات الصالحة من أهم ما يحتاجه المصلح في طريقه والعامل لدين الله في ميادين عمله، كما قال الطبري ؒ: (يعني تعالى ذكره: وما جعل الله وعده إياكم ما وعدكم من إمداده إياكم بالملائكة الذين ذكر عددهم = ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾، يعني بشرى، يبشركم بها = ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾، يقول. وكي تطمئن بوعده الذي وعدكم من ذلك قلوبكم، فتسكن إليه، ولا تجزع من كثرة عدد عدوكم، وقلة عددكم = ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، يعني: وما ظفركم إن ظفرتم بعدوكم إلا بعون الله، لا من قِبَل المدد الذي يأتيكم من الملائكة. يقول: فعلى الله فتوكلوا، وبه فاستعينوا، لا بالجموع وكثرة العدد، فإن

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ٢٧٦) لابن عاشور.

نصركم إن كان إنما يكون بالله وبعونه ومعكم من ملائكته خمسة آلاف، فإنه إلى أن يكون ذلك بعون الله وبتقويته إياكم على عدوكم، وإن كان معكم من البشر جموع كثيرة = أحْرَى، فاتقوا الله واصبروا على جهاد عدوكم، فإن الله ناصركم عليهم)[١] .

والبشريات التي يمكن أن تكون مطمئنة للمؤمنين اليوم -بعد انقطاع الوحي- هي في النصوص العامة الواردة في الوحي والمتعلقة بسنن الله ﷻ في نصر دينه ومعيّته لأوليائه وجنده، وكذلك في الرؤى الصالحة التي يؤيد الله بها عباده.

الرابعة: أن من أعظم ما يستجلب به المؤمن عون الله ومدده هو الصبر والتقوى، وذلك أن الله ﷻ قال: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم﴾ والجمع بين الصبر والتقوى متكرر في كتاب الله ﷻ في سياق العمل للدين، كما جاء في سورة آل عمران نفسها في قوله ﷻ: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ ولذلك فإنّ من أهم ما ينبغي أن يحرص عليه المصلح في طريقه أن يكون صابرا متقيا، فيديم مراجعة حاله من جهة الصبر والتقوى، فإذا لازمهما فليبشر بعون الله ومدده وتوفيقه.

الخامسة: أن مبشرات النصر التي تتعلق بها قلوب المؤمنين إنما هي مبشرات مطمئنة فقط، وإلا فإنّ حقيقة النصر من عند الله. ففي هذه الآيات بعد أن بشّر الله ﷻ المؤمنين بهذا المدد الكبير من الملائكة: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ

(١) تفسير الطبري: (٦/ ٣٨).

مُنزَلِينَ﴾ بيّن أن هذا ليس إلا بشرى لتطمئن به القلوب فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾، ثم ذكّرهم بالحقيقة الكبرى المستقرة الثابتة بأن النصر من عنده الله وحده.

السادسة: أهمية استحضار أسماء الله الحسنى على طول الطريق في العمل لدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يُختار من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يناسب الحال، وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يذكر أسماءه وصفاته عند هذه الأحوال في كتابه، كما قال هنا: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، فاسما العزيز الحكيم من أسماء الله التي ينبغي استحضارها في مقام المواجهة مع الأعداء ومقام تثبيت المؤمنين ومقام الصبر على الشدائد، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى وذلك بيّنٌ باستقراء آيات الكتاب العزيز.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾

الفوائد:

الأولى: في هذه الآيات يبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئاً من الحِكَم من أفعاله وأقداره، وكثيرا ما يذكر سبحانه في كتابه الحكمة من أفعاله، وأنه جَلَّ جَلَالُهُ يقدّر الأقدار ويدبّر الأحوال لتتحقق مصالحُ معينة في مخلوقاته، وهذا تكرر في سورة آل عمران في عددٍ من المواضع.

والتدافع بين الحق والباطل من أهم الميادين التي تتجلّى فيها الحِكَم الإلهية

والسنن الربانية، وهذا بابٌ من أبواب التفقه في الدين عظيم.

في هذه الآيات يذكر الله ﷻ شيئا من هذه الحِكَم في تقديره النصر لعباده المؤمنين على الكفار، فذكر ثلاث حِكَم:

١- ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والطرف: الطائفة والنفر، وذلك بأن يُصاب منهم ويُقتل؛ فيُرهِبَهم بذلك ويكفّ شرّهم ويصيب منهم سبحانه.

٢- ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾، وهي قريبة من الأولى، وذلك بأن يُصاب الكفار الظالمون بالهزيمة والذل، وهذا من أعظم الخير الذي يتحقق في الأرض، بأن يكون أعداء الله هم الأذلين، وإذا عُكِسَت القضية وكان المؤمنون هم الأذلين والكفار هم الأعزة فهذا بابُ فتنة عظيمة، كما قال الله ﷾ على لسان المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٥] ومعنى الفتنة هاهنا عند طائفة من المفسرين هو تسليط الأعداء على المؤمنين فيُفتَن بذلك الكفار؛ إذ يظنّون أنهم على الحق طالما أنهم عَلَوا على المسلمين.

٣- ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فمن الحِكَم في تسليط المؤمنين على الكفار وفي نصر الله لهم هو أن يتوب على جماعات من هؤلاء الكفار، لأنّ عزّ الإسلام وعلوّ كلمته سبب في توبة كثير من الكفار الذين تؤثر فيهم الموازين المادية.

٤- ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، وذلك بأن يحاسبهم ﷾ على كفرهم وعلى ما يفعلونه بالمؤمنين.

الثانية: في قوله ﷾ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، هذه الجملة ذكرها الله ﷾ بين جمل الحِكَم من نصره لجنده وكبته للكفار، وهي جملةٌ خاطب الله بها نبيه ﷺ حين قال: «**كيف يُفلح قومٌ شجوا نبيهم؟**»[(١)] وذلك بعد أن جرح المشركون

(١) رواه مسلم: (١٧٩١).

وجهه ﷺ يوم أُحُد. فبيّن الله لنبيه ﷺ أن مصير العباد بيده سبحانه، وأن فلاحهم وصلاحهم وهلاكهم وعذابهم ليس لأحد من خلقه، حتى لو كان رسول الله ﷺ، وهذا من أعظم مقامات التوحيد والعبودية، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

الثالثة: في قوله ﷻ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، هذه الجملة عجيبة في سياق غزوة أُحُد، وذلك أنّ غزوة أُحد أكثر غزوة حصلت فيها نكايةٌ على المسلمين، وشُجّ فيها وجه النبي ﷺ، وكُسِرت رباعيّته، وقُتِل عمّه حمزة، وقُتل مُصعب بن عمير، وقُتل فيها خلق من سادة الصحابة وخيارهم، ومع ذلك يبيّن الله ﷻ في هذه الآيات أنه قد يتوب على هؤلاء المجرمين، وبالفعل حصل ذلك، فقد تاب الله ﷻ على عدد من المشركين الذين شاركوا في هذه الغزوة، بل على أحد قادة جيش المشركين ممن تسبب باختلال الصفوف في المسلمين والإصابات فيهم وهو خالد بن الوليد، بل ولم تكن توبة الله عليه أن أخرجه من الشرك إلى الإسلام فقط، بل جعله مقدَّما في الإسلام وسيفاً من سيوفه، فسبحان الحليم الكريم كيف يتوب على عباده ويحلم عليهم ويغفر لهم.

وهذا يذكّرنا بالآيات من سورة البروج التي ذكر فيها الله ﷻ صنيع الكفار بالمؤمنين وحرقهم إيّاهم، ثم بعد ذلك يفتح لهم باب التوبة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، وهذا كلّه يفيد المصلح بأن لا ييأس من صلاح أعدائه حتى ولو كان لهم في حرب الإسلام ما كان، وفي نفس الوقت لا يتهاون معهم ولا يغفل عن مكرهم، ولكنه يعلم أن باب التوبة مفتوح طالما أن الروح لم تغرغر.

المقطع الثاني
من سورة آل عمران:

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨ وَلَا
تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ
مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٤٢]

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: أنّ من أعظم ما يصبّر المؤمن عند الابتلاءات والمصائب، وعند رؤيته علوّ أهل الباطل وقوّتهم، أن يتذكّر صنيع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأهل الباطل في الأمم السابقة، وأن يعيَ سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في المكذبين والظالمين، فإنّ انتصار الكفار في جولة أو جولات، لا يعني أنهم سيستمرون كذلك إلى النهاية، وإنما قد بيّن الله

لنا في كتابه أن عاقبة أهل الباطل وعاقبة المكذبين المعادين للرسل ولأهل الحق أنه يستدرجهم ويمكر بهم، ثم يُبطل كيدهم ومكرهم، ثم يهلكهم ويعذبهم ﷻ.

ولذلك فإن مناسبة ذكر هذه الآية ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ في هذا السياق المتعلق بغزوة أُحد مناسبة ظاهرة، فهي تسلية للمؤمنين وتوعية لهم بأن ما أصابهم من القرح وما حصل لأعدائهم من الانتصار ليس بخارجٍ عن سنن الله ﷻ، وأن المعركة لا تُحسَم في جولة واحدة، وإنما ينبغي أن يُوسِّع المصلح النظر في سياق المعركة بين الحق والباطل، فلا ييأس عند الهزيمة، ولا يبطُر عند النصر. وهذا مهم لمصلحي زماننا، أن يدركوا هذا المعنى ويتأملوا في سنن الله ﷻ، فلا ييأسوا من رَوحه ورحمته، ولا يظنوا أنّ كلمة الكفار ستكون هي العليا وإنما كلمة الله هي العليا.

وقد أعجبني كلام الإمام الطبري في تفسير هذه الآية إذ وضعها في سياق يوم أُحُد، وربط بين لفظها ومعناها وبين حال النبي ﷺ وأصحابه في ذلك اليوم، وهذا من منهج الطبري وتقدمه وإمامته في العلم بكتاب الله ﷻ، وهذا هو النص الذي ذكره الطبري في تفسير هذه الآية: (يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، مضت وسلفت مني فيمن كان قبلكم، يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به، من نحو قوم عاد وثمود وقوم هود وقوم لوط، وغيرهم من سُلاف الأمم قبلكم، ﴿سُنَنٌ﴾، يعني: مثُلات سيرَ بها فيهم وفيمن كذَّبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهلَ التكذيب بهم، واستدراجي إياهم، حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجَّلته لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي، وأنزلتُ بساحتهم

نِقَمي، فتركتهم لمن بعدهم أمثالا وعبرًا، ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، يقول: فسيروا - أيها الظانّون، أنّ إدالتي مَنْ أدلت من أهل الشرك يوم أحُد على محمد وأصحابه، لغير استدراج مني لمن أشرك بي، وكفرَ برسلي، وخالف أمري -في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم، ممن كان على مثل الذي عليه هؤلاء المكذبون برسولي والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آل إليه غِبُّ خلافهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي، فتعلموا عند ذلك أنّ إدالتي من أدلت من المشركين على نبيي محمد وأصحابه بأحد، إنما هي استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم: من تعجيل العقوبة عليهم، أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولي)[١].

الثانية: في قوله ﷻ ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: حثٌّ للمؤمنين على أن يتأملوا في التاريخ وينظروا في أحوال الأمم وفي سنن الله ﷻ وأقداره التي أجراها على عباده، فمن يطالع هذه السِيَر ويقرأ التاريخ بقصد استخراج السنن الإلهية وبقصد ملاحظة أقدار الله ﷻ وحكمته التي يجريها على خلقه؛ فهو ممتثلٌ لأمر الله تعالى في كتابه، وهذا من أهم ما يحتاجه المصلحون العاملون المدافعون عن الحق المحاربون للباطل، فإنهم أحوج الناس إلى معرفة سنن الله ومعرفة أيامه ومعرفة حكمته في أقداره التي يجريها على عباده. وقد أحسن الإمام الطاهر ابن عاشور في تعليقه على هذه الآية بقوله: (وفِي الآيَةِ دَلالَةٌ عَلى أهَمِّيَّةِ عِلْمِ التّارِيخِ لِأنَّ فِيهِ فائِدَةَ السَّيْرِ في الأرْضِ، وهي مَعْرِفَةُ أخْبارِ الأوائِلِ، وأسْبابِ صَلاحِ الأُمَمِ وفَسادِها. قالَ ابْنُ

(١) «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»: (٦/ ٧٠ -٧١) ط. هجر.

عَرَفَةَ: السَّيْرُ في الأرْضِ حِسِّيٌّ ومَعْنَوِيٌّ، والمَعْنَوِيُّ هو النَّظَرُ في كُتُبِ التّارِيخِ بِحَيْثُ يَحْصُلُ لِلنّاظِرِ العِلْمُ بِأحْوالِ الأُمَمِ، وما يَقْرُبُ مِنَ العِلْمِ، وقَدْ يَحْصُلُ بِهِ مِنَ العِلْمِ ما لا يَحْصُلُ بِالسَّيْرِ في الأرْضِ لِعَجْزِ الإنْسانِ وقُصُورِهِ. وإنَّما أمَرَ اللَّهُ بِالسَّيْرِ في الأرْضِ دُونَ مُطالَعَةِ الكُتُبِ لِأنَّ في المُخاطَبِينَ مَن كانُوا أُمِّيِّينَ، ولِأنَّ المُشاهَدَةَ تُفِيدُ مَن لَمْ يَقْرَأْ عِلْمًا وتَقْوى عِلْمَ مَن قَرَأ التّارِيخَ أوْ قَصَّ عَلَيْهِ)[1].

قوله ﷻ:

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: اختلف المفسرون في المقصود باسم الإشارة هذا، هل هو عائد على القرآن؟ أم هو عائد على الآية التي قبلها وهي قوله ﷻ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾؟ فإذا كان الترجيح أن هذه الآية عائدة على قوله ﷻ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ ففيها فائدة أن العناية بالسنن الإلهية وبما أجراه الله ﷻ على عباده هو من أعظم الهدى، وأن فيه البيان الشافي وفيه الموعظة، وهذا يؤكد أهمية السنن الإلهية، ويزيد المؤمن تمسّكا بالعناية بها ففيها الهدى والبيان والموعظة.

الثانية: في قوله ﷻ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فائدة أن الذي ينتفع بالسنن الإلهية والآيات القرآنية ويعتبر بها ويهتدي بها إنما هم المتقون، كما قال ﷻ في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وهذا المعنى متكرر

(١) التحرير والتنوير: (٤/ ٩٧) لابن عاشور.

في كتاب الله، أعني أنّ الانتفاع بالآيات ليس لكلّ أحد، وإنما هو لمن تلبّس بصفاتٍ قلبية وعملية معينة، من أهمها: التقوى والخشية واجتناب الكبر.

قوله ﷻ:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: أنّ المؤمنين وإن بلغت درجة إيمانهم ما بلغت فإنهم قد يتأثرون بالهزائم التي تحصل لهم وبالآلام التي تنالهم وتصيبهم من أعدائهم، وهذه الآية فيها تعزيةٌ للمؤمنين وتشجيع لهم، وإنهاضٌ إلى العمل والقوة وإن كانوا قد أصيبوا لتوّهم، وهذا يدل على أن المؤمن يحتاج إلى الإيناس وإلى التعزية وإلى التشجيع والتقوية والتثبيت، فهذا شأن النفس البشرية.

ونحن إذا نظرنا إلى واقعنا فسنرى أن كثيرا من المؤمنين قد أصابهم من الضعف واليأس والوهن بسبب المصائب التي تكالبت على المسلمين ما أصابهم، لذلك نحن بحاجة ماسّة إلى خطاب التشجيع والتثبيت والطمأنة والتقوية، وإلى نبذ خطاب الفشل والقعود والوهن.

وقد ذكر الله لنا في موضع آخر تثبيته لموسى عليه السلام حين واجه السحرة، كما قال ﷻ: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]، وهذا يشبه خطاب الله للمؤمنين في أُحُد، ففي كليهما ﴿أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ولكن بصيغة المفرد في آية موسى عليه السلام، وبصيغة الجمع في آية ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

الثانية: أن من جملة ما يثبّت الإنسان المؤمن عند المصائب هو استبشاره بالمستقبل، وإدراكه عدم انحصار المعركة في جولة واحدة، فإن قوله سبحانه ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ يشير إلى المستقبل كما ذكر جماعة من المفسرين.

الثالثة: في قوله ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: دليل على أن من أعظم ما يثبُتُ به الإنسان المؤمن عند الأزمات والمصائب أن يُهيَّج إيمانه وأن يُذكَّرَ بأصل يقينه، فهذا مرجع يفيء إليه الإنسان ويثبت من خلاله بإذن الله، وهذا مذكور في غير هذا الموضع كما في تثبيت موسى عليه السلام لمن معه من المؤمنين: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] وهنا يذكر الله المؤمنين بإيمانهم بأن يكون سببا لثباتهم وعدم ضعفهم: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: أن مما يعزّي المؤمنين عند مصابهم أن يتذكروا مُصاب أعدائهم والنكال الذي نال أعداءهم على أيديهم، كما قال سبحانه وتعالى في سورة التوبة أيضا: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، فشفاء صدور المؤمنين مقصدٌ من المقاصد الشريفة

المترتبة على جهاد أعداء الله، وهي مما يعزّيهم عندما يُصابون من جهة الأعداء إذ يتذكرون أن أعداءهم قد أُصيبوا كذلك، وهذا مؤثر في النفس كثيرا. ولذلك فإن المصيبة العظيمة التي تحصل للمسلمين إنما هي: حين لا يكون لهم تنكيلٌ سابق في أعدائهم ولا ظهورٌ عليهم ولو في بعض الأحيان، وحين تكون الغلبة الدائمة في عصر من العصور للكفار عليهم، فهذه من أعظم المصائب وهي داخلةٌ في الفتنة التي استعاذ المسلمون منها في قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الممتحنة: ٥]، أي لا تسلّطهم علينا فيظنوا بذلك أنهم على الحق. ولذلك فإن من ثمرات النصر على الأعداء زيادة اليقين من جهة، وإيجاد حالة من شفاء الصدور من جهة أخرى.

الثانية: في قوله ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: يبيّن الله تعالى سنة من سننه الماضية، أنه يداول الأيام بين الناس، فلا يجعل المسلمين في انتصار دائم، ولا يجعل الكفار في انتصار دائم، وإنما يُداول الأمر بينهم، ويبتلي المؤمنين بالكافرين ثم يجعل العاقبة للمؤمنين، كما قال ﷻ في سورة محمد: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] وكما قال هرقل في حديثه لأبي سفيان -الذي أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى في صحيحيهما- أنَّ هِرَقْلَ قَالَ لأبي سفيان: «سَأَلْتُكَ كيفَ كانَ قِتَالُكُمْ إيَّاهُ؟ فَزَعَمْتَ أنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ ودُوَلٌ، فَكَذلكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لهمُ العَاقِبَةُ»(١).

(١) رواه البخاري: (٤٥٥٣)، ومسلم: (١٧٧٣).

وفَهْمُ هذه السنة الإلهية من أعظم ما يثبّت المؤمنين ويجبر مصابهم ويزيل وحشتهم، كما أن غياب فهمها من أعظم ما يجعل مصاب المؤمنين شديداً، بل وقد يلحق بعضهم اليأس والإحباط بسبب عدم إدراكهم لها كما يجري في زماننا هذا، وهذا يؤكد من أهمية الوعي بالسنن الإلهية وأن يُربّى المؤمنون والمصلحون عليها.

الثالثة: حين قال الله ﷻ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وكان مقتضى ذلك أن يُصاب المؤمنون ويبتلوا بأعدائهم، بيّن الله الحكمة من تقديره هذا، فذكر في هذه الآية والتي تليها عددا من الحكم الناشئة عن الابتلاءات العامة التي تحدث للمسلمين على أيدي أعدائهم، فقال سبحانه:

١- ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

٣- ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٤- ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

فكل واحدة من هذه الأربع هي حكمة عظيمة ومصلحة جليلة لا تأتي في حال الرخاء وإنما تترتب على أحوال الشدة والابتلاء.

الرابعة: في قوله ﷻ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يُستفاد منها أن الابتلاءات من أهم أسباب إثبات صدق المؤمن وظهور إيمانه على الحقيقة، كما قال ﷻ في سورة العنكبوت: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣] أي: وليعلمنّ الله الذين صدقوا في إيمانهم. فالابتلاءات -وخاصة المتعلقة بتسليط الأعداء ومدافعتهم- هي اختبار لصدق الدعوى، فيرى الله ﷻ مَن

الذي ينصرُ دينه ويثبُتُ أمام أعدائه فيكون بذلك قد أتى بالدليل على إيمانه، وأما الذي لا يثبت ولا يصبر، بل يغيّر ويبدّل فيكون قد أثبت نفاقه أو كذبه في دعواه أنه مؤمن، وهذا أمر عظيم يجعل المؤمن في غاية الانتباه عند مراحل الابتلاء فيثبت ويصبر ولا يبدّل.

الخامسة: في قوله ﷻ: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ بيان للشرف العظيم للشهداء، وذلك أن الله ﷻ يصطفيهم ويختارهم، فالشهداء مختارون كما قال سبحانه: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، فمن حكمة الابتلاء وتسليط الأعداء أن الله يحب أن يكون من عباده المؤمنين من يُراقُ دمه في سبيله، فيأتيه يوم القيامة بدمائه وإصابته التي أصيب بها في الدنيا، لونها لون الدم وريحها ريح المسك، وسيأتي مزيد من الكلام عن الشهادة في قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] بإذن الله.

السادسة: في قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، بيانٌ للجمع بين إرادة الله الكونية وبين إرادته الشرعية، وذلك أنّه هو الذي قدّر تسلّط الأعداء على المسلمين، ولكنه في نفس الوقت لا يرضى ما يفعله الكفار من الظلم والقتل للمسلمين. فليس كلّ ما قدّره الله يحبه ويرضاه، ولكنه يقدره لحكمة، فالله حين سلّط الظالمين على المستضعفين لم يسلّطهم لأنه يحبهم ولا لأنه يرضى أفعالهم، فنحن لسنا جبرية ننفي اختيار المخلوقات، ولسنا نفاةً للحكمة والتعليل، ولكننا نقول: إن الله ﷻ قدّر وكلّف، وليس كلّ ما أراده أحبّه، وإن كان لا يقدّر شيئاً إلا لحكمة.

وهنا يبيّن الله سبحانه أنه لا يحب الظالمين، مع كونه ﷻ قد بيّن قبل ذلك أنه هو الذي يداول الأيام بين الناس، وهذا التقرير يفيدُ في تثبيت القلوب

ونبذ الشك الذي قد يتسلّل إليها عند رؤية المصائب والشدائد التي تصيب المسلمين.

قوله ﷻ:

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: هذه حكمة ثالثة ذكرها الله ﷻ من حِكَم الابتلاء الذي يحصل لعباده المؤمنين بسبب الصراع بين الحق والباطل ومداولة الأيام بين الناس، وهو أنه يمحّص الذين آمنوا، والتمحيص هو التنقية والتخليص من العيوب كما ذكره ابن عاشور رحمه الله تعالى[1]، وهذه من الفوائد التزكويّة للابتلاءات، فإنّ الابتلاء يزكّي النفوس ويُصلحها وينقّي عيوبها وذنوبها، وهذه الحكمة -التي هي التمحيص- زائدة على الحكمة الأولى المذكورة في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فتلك في تمييز الصفوف وظهور صدق المؤمن من كذبه، وهذه في آثار البلاء التزكوية على النفس وتنقيتها وتصفيتها بسببه، بالإضافة إلى ما فيها من تكفير الذنوب والسيئات كما ذكره طائفة من المفسرين.

الثانية: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذه حكمة أخرى من حِكَم الابتلاء ومداولة الأيام بين الناس: أن الله ﷻ يمحق أعداءه ويهلكهم، إما بسبب علوّهم على المؤمنين وظلمهم لهم، وتماديهم وإسرافهم؛ فيستحقون بذلك العقوبة العاجلة، وإما بسبب تسليط الله المؤمنين عليهم فيعذّبُهم بأيدي المؤمنين، والله أعلم.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٠٤) لابن عاشور.

قوله ﷻ:

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: الله ﷻ لم يُفاجئ المؤمنين بالابتلاءات قبل أن يكون قدّم لهم الخبر عن وقوعها، وهذا مستمر إلى قيام الساعة، فعلى كلّ مؤمن أن يستصحب هذا الخبر العام الشامل للمؤمنين بأنهم سيبتَلَون ويُمحَّصون ويُعرَّضون لما يتطلّب منهم الصبر والثبات على الدين والبذل في سبيل الله.

وفي هذه الآية بيانٌ من الله ﷻ بابتلاء المؤمنين، وهو مسبوقٌ بآياتٍ كان فيها التهيئة للابتلاء، وقد استفاد المؤمنون من هذه التهيئة، فاستعدوا له، وحين رأوه عرفوا أنه هو ما أخبر الله به، فصدّقوا وعْد الله، وآمنوا بخبره، وازدادوا إيمانا وتسليما، كما قال الله ﷻ في سورة الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وهكذا المؤمن حين يستصحب مثل هذا الخبر في حياته فإن البلاء يكون خيراً له، لأنه يكون متهيئاً للصبر، ومحسناً الظن بالله، بخلاف من لم يستصحب مثل هذا الخبر فإنه قد يُفاجأ بالابتلاءات وشدّتها، وقد يضطرب إيمانه ويسوء ظنّه بربه، ثم قد لا يثبت بل يبدّل وينتكس، كما رأينا ذلك في الواقع كثيرا، نسأل الله العفو والمغفرة والستر والثبات.

الثانية: أن ميزان الابتلاء وزمنه عند الله ﷻ يختلف عن موازين القياسات البشرية والتقديرات الذهنية، وذلك أن الذي يتأمل -بالنظر البسيط- قد يخلُص إلى نتيجة مفادها: أن المؤمنين بعد المرحلة المكيّة قد انتهى ابتلاؤهم بالأعداء، لأن السمة العظمى في المرحلة المكية كانت هي الابتلاء، وهذه الآية مدنية، بل ليست في بداية المرحلة المدنية وإنما بعد بضع سنوات من الهجرة، فهي نزلت متعلقة بأحداث يوم أُحد، ومع ذلك يتكرر الإخبار الإلهي بتحقق الابتلاء على المؤمنين، وقد جاء مثل هذا الخبر قبل ذلك في بداية المرحلة المدنية وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فإذا قدَّرتَ القضية بالقياس الذهني المحض، قُلتَ: إن المؤمنين قد خَلُصُوا وهُذِّبوا ونُقُّوا في المرحلة المكية، التي كانت سمتها العامة الابتلاءات، وإن زدتَ قلتَ: إلى يوم بدر، أما أن يستمر هذا الابتلاء وهذا البيان الإلهي المصدَّر بـ ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾، فهذا أمرٌ آخر لا يُقاس بالنظر البشري المحض وإنما يُفهَم من خبر الله ﷻ. ومنه يُعلَم أنّ حمل هذا الدين أمرٌ عظيم، وأنه ليس بالهزل، وأن على المصلحين والعاملين ومن يريد أن يحمل راية الدين أن يوطّنوا أنفسهم للابتلاء الطويل، وللتمحيص الدائم والصبر المستمر، ولا شك أن عاقبة ذلك حميدةٌ في الدنيا وفي الآخرة.

الثالثة: في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بيانٌ لعِظَمِ منزلة الجهاد في سبيل الله ومنزلة الصبر، وأنهما من المعايير التي يُقاس بها الإيمان، وذلك أنهما جُعِلا غايةً للابتلاء، فالابتلاء يحصل حتى يتحقق هذان الأمران في المؤمن، فإذا تحققا كان ذلك دليلاً على صدق إيمانه، ويُضاف إلى

هذين الأمرين مما هو دليل على تمام الإيمان وصدقه: اليقين، فإنه كلما عظم اليقين دلّ ذلك على صدق المؤمن، وهذا كما في آيات سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٣-١٥] فبيّن سبحانه أن الصادقين هم الذين جمعوا بين اليقين والجهاد، وفي آية آل عمران بيّن أن الغاية هي أن يعلم الله المجاهدين والصابرين، وقد تكرر ذلك في سورة محمد كذلك، في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد: ٣١]، فمن وفّقه الله للجمع بين اليقين والصبر والجهاد؛ فقد كَمُلَ إيمانه وتمّ أمره وليس بينه وبين الجنة إلا أن يموت.



المقطع الثالث
من سورة آل عمران:

﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ
أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ
١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ
ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥
وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا
ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٣-
١٤٨]

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾

الفوائد:

الأولى: ليس كلّ من توقع أنه يصمد أمام الابتلاء فسيصمد، وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخاطب في هذه الآية أصحاب نبيه الذين كانوا يتمنون أن يلقوا العدو ويجابهوه ويقاتلوه، فلما التقوا بالأعداء يوم أُحُد وقدّر الله ما قدّر من

اختلال الصفوف والأوضاع؛ فرّ من فرّ من المؤمنين، فالله ﷻ يبيّن للمؤمنين هذه الحقيقة: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، فالدرس المستفاد هنا هو ألا يثق الإنسان بنفسه ثقة زائدة تدفعه إلى تمنّي لقاء العدو وتمني التعرض للابتلاء، فإن الإنسان لا يدري ما حاله عند ذلك، ولكن يسأل الله العافية، فإذا قُدّر عليه الابتلاء سلّم وصبر، كما ورد عن النبي ﷺ في الصحيحين: (أَيُّها النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وسَلُوا اللهَّ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا)(١).

الثانية: أن هذه الآية لا تتعارض مع ما ثبت عن النبي ﷺ من فضل سؤال الله الشهادة: (مَنْ سَأَلَ اللهَّ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ؛ بَلَّغَهُ اللهُّ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»(٢) فسؤال الله الشهادة لا يعني سؤال الله الابتلاء، وإنما الإنسان ميّت ميّت وسيلقى ربه، فالمؤمن يسأل ربه أن يكون لقاؤه به شهادةً في سبيله، لما فيها من الفضل الذي ذكره الله ﷻ.

والشهادة لا تقتضي أن يسأل الإنسان ربه الابتلاء، وإنما يمضي المؤمن في عمله الذي يقدّره الله له سائلاً الله أن يكتب له هذه المنزلة العظيمة التي امتدحها، على أن بعض المفسرين رأوا أن الآية ليس فيها ذمٌّ لتمنّي الموت، وإنما فيها ذمٌّ لترك العمل بمقتضى هذا التمني، فلا يكون هناك تعارضٌ في أساس القضية بين الآية وبين الحديث، وممن قال ذلك الإمام ابن سعدي: (وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمني الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل

(١) رواه البخاري: (٢٩٦٥)، ومسلم: (١٧٤٢).

(٢) رواه مسلم: (١٩٠٩).

بمقتضاها، والله أعلم)[١].

قوله ﷻ:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾

الفوائد:

الأولى: أن الاستقامة على الطريق والثبات عليه ليس مرتبطاً بحياة إنسانٍ من الصالحين أو موته ولو كان النبي ﷺ، وذلك أن الله ﷻ عاتبَ من فرّ من أصحاب نبيه ﷺ حين سمعوا بخبر موته، مذكّراً إياهم بالحقيقة الثابتة وهي أنه رسول من رسل الله، وأنه سيموت، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين وفاة النبي ﷺ: (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت)[٢].

وإذا كان هذا في حق النبي ﷺ فمن باب أولى أن يُربّى المصلحون على ذلك في حقّ العلماء والقادة والدعاة والرموز الدينية، ممن هم دون النبي ﷺ، بل ممن يقع من كثير منهم من الخطأ والزلل والإشكال ما الله به عليم.

فمن معايير التربية الإصلاحية الصحيحة: أن تكون حقائق العبودية أثبت في القلب من الأشخاص، وهذا لا يستلزم عدم أهمية وجود العلماء، فإنهم ورثة الأنبياء والدّالون على الحق، ولكنهم بشر، يجري عليهم ما يجري على

(١) تفسير السعدي: (١٥٠).

(٢) رواه البخاري: (١٢٤٢).

البشر، وأما الحق فهو ثابت لا يتغير.

الثانية: أن من أهم ما ينبغي غرسه في نفوس المصلحين وله أثرٌ بالغٌ على الثبات: حقيقة أن الإنسان إذا انتكس فإنه لا يضرّ إلا نفسه، كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فالله ﷻ غنيٌّ عن خلقه، وهو ناصرٌ دينه، والمصلح إنما يرجو بلوغ رضا الله بسلوك طريقه، فإن تنكّب الطريق فقد فاته الشرف وخسر دون أن يضرّ الله شيئا.

الثالثة: أن من أعظم صور عبودية الشكر لله: الثباتَ على طريق الاستقامة أمام الفتن والابتلاءات والشدائد، وعدم الانتكاس أو الارتداد بسببها، كما قال ﷻ بعد أن ذكر المنقلبين على أعقابهم: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، كما قال ابن سعدي: (فلما وبّخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامتثل أمر ربه، فقال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾)(١).

قوله ﷻ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: أن من أعظم أسباب الثبات أمام الابتلاءات والشدائد التي تُصيب المؤمنين في سبيل الله: استحضار قصص الأنبياء وأحوال الصالحين، وذلك أن الله ﷻ بعد أن عاتب أصحاب نبيه على ما عملوه يوم أُحُد، ذكّرهم بفعل من قبلهم من الثابتين، وبيّن لهم أنهم ما وهنوا وما ضَعُفوا وما استكانوا، كما قال

(١) تفسير السعدي: (١٥٠).

الطبري ﵀ تعالى: (فعذلهم الله ﷻ على فرارهم وتركهم القتال فقال: أفائن مات محمد أو قتل، أيها المؤمنون، ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم؟ ثم أخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلّا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلونه إذا قتل نبيهم = من المضي على منهاج نبيهم، والقتال على دينه أعداءَ دين الله، على نحو ما كانوا يقاتلون مع نبيهم = ولم تهنوا ولم تضعفوا، كما لم يضعف الذين كانوا قبلكم من أهل العلم والبصائر من أتباع الأنبياء إذا قتل نبيهم، ولكنهم صَبروا لأعدائهم حتى حكم الله بينهم وبينهم؟)[1]، ولذلك حين جاء خبّاب يشتكي إلى النبي ﷺ من شدة ما يلقى من العذاب في سبيل الله، ذكّرهُ بالصابرين من الأمم السابقة، وأنه كان يُنشَر بعضهم بالمناشير ويُمشَط آخرون بأمشاط الحديد وما يصدّهم ذلك عن دينهم.

الثانية: أنّ الأنبياء كانت لهم وظيفةٌ متعلقةٌ بتربية المؤمنين الذين معهم وقيادتهم للعمل في سبيل الله وإعلاء كلمة الله، وأنّ دورهم لم يقتصر على دعوة المشركين من أقوامهم إلى الإسلام، بل كانوا يعتنون بمن آمن كذلك، وهذا كما قال الله ﷻ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ والربيون هم الجماعات الكثيرة من أتباع الأنبياء (الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة)[2] كما قال ابن سعدي، وقد ظهرت على تلك الجماعات آثار تربية أنبيائهم بصبرهم أمام ما أصابهم في سبيل الله فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا، وهذا قد حصل كثيرا لأتباع النبي ﷺ كذلك، حتى في يوم أُحُد الذي فرّ فيه البعض واضطرب، إلا أنه قد ثبت آخرون وصبروا وما وهنوا وما ضعفوا

(١) تفسير الطبري: (٦/ ١١٠ -١١١)

(٢) تفسير السعدي: (١٥١).

وما استكانوا، كما في موقف طلحة وسعد بن أبي وقاص ﷺ والعصبة من الأنصار وغيرهم من الذين أحدقوا بالنبي ﷺ، وقُتِلَ بعضهم دونه، ومن أولى من يدخل في هؤلاء: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وكان ذلك بعد يوم أُحُد مباشرة، وكان فيهم الزبير بن العوام وأبو بكر الصديق ﷺ مع سبعين من الصحابة وكانوا قد ﴿ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢] وخرجوا إلى حمراء الأسد يتعقّبون قريشاً مع كل ما فيهم من الجراح، فهؤلاء ممن ربّاهم النبي ﷺ وثبتوا وصبروا، وكما كان أتباع الأنبياء السابقين أنموذجاً للصحابة، فإن الصحابة كذلك أنموذجٌ لنا في مثل هذه المواقف.

الثالثة: أنّ من أهم صفات المصلحين التي يحبّها الله ﷻ ويثني على أصحابها بها هي: صفة الصبر والثبات وعدم الانهزام والانكسار أمام شدة الابتلاءات وقوّة المصائب، فالله ﷻ كرّر ثناءهُ على أولئك المؤمنين بسبب هذا الصبر والثبات أمام المصائب.

الرابعة: أن مما يهوّن المصائب والشدائد على الإنسان كونها في سبيل الله ﷻ، فأهون المصائب ما كان في ذات الله وفي سبيله، لأن الإنسان المؤمن يرى أنه بذل ما يحب في سبيل من هو أحب إليه من نفسه وماله ومن كل شيء وهو الله ﷻ، فحين ينظر الإنسان بقلبه إلى الله ﷻ، ثم ينظر إلى جسده فيرى إصابته والدماء التي تغطيه، ثم يقارن بينما ينبغي لله من البذل والعطاء وبين ما هو فيه من التقصير؛ تهون عليه جراحاته ويهون عليه ما يقدّم، كما قال النبي ﷺ: «هل

أنـتِ إلا إصبعٌ دَميـتِ وفي سـبيل الله ما لقيـتِ»[١].

قوله ﷻ:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: أنّ حـال المؤمنين عنـد المصائـب والابتـلاءات الشـديدة حـالٌ عجيبـة، وذلـك أنّهـم مع كونهـم صابريـن ثابتين، ومـع كونهـم محسنين متّقين، غـير جزعـين ولا متسـخّطين، ومـع كـون هـذه الابتـلاءات في غايـة الشـدّة عليهـم؛ إلا أنهـم مع ذلـك كلّه يتذكّـرون ذنوبهـم في تلـك الأحـوال الشـديدة ويسـتغفرون الله منهـا، وهـذا مـن أعجـب الأحـوال الإيمانيـة وأعظمهـا، وهـو مناقـضٌ لحـال المنافقـين والذيـن في قلوبهـم مـرض، الذيـن إذا حـضروا هـذه المشـاهد واشـتدّت عليهـم الأحـوال؛ رجعـوا بالتهمـة على الله ورسـوله، كـما قـال الله عنهـم في سـورة الأحـزاب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وهكـذا هـي الابتـلاءات، تزيـد المؤمـن إيمانـاً وثباتـاً واسـتغفاراً ورفعـةً، وتزيـد المنافـق شـكّاً وريبـاً ونفـورا.

الثانيـة: في قولـه ﷻ: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أنّ مـن أعظـم مـا يثبّـت الإنسـان في جهـاده لأعـداء الله: الدعـاء بالثبـات، كـما قـال ﷻ عـن المؤمـنين مـن أصحـاب طالـوت: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]، وهـذا الدعـاء

(١) رواه البخاري: (٢٨٠٢)، ومسلم: (١٧٩٦).

إذا صدر من قلبٍ خالصٍ صادقٍ في هذا الطلب فإنه سيرى بعينيه أثر تثبيت الله له وإجابته دعاءه.

قوله ﷻ:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: أنّ الله ﷻ سمى النصر ثواباً، ومعنى ذلك أنه يُعطى من الله ﷻ ويوُهب ويؤتى للذين أحسنوا؛ إثابةً لهم على صدقهم وصبرهم في البذل في سبيل الله، فالنصر ليس نتيجة يحصّلها العامل بنفسه، وإنما الذي ينبغي: أن يضع العامل عينه على العمل والسبب، ويعلم أن النصر ثوابٌ يوهَب، وهذا يعين على تصحيح بوصلة المسير، وتحقيق مزيد من التوكل على الله ﷻ.

الثانية: في قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وفي الآية التي قبلها: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] فائدة للمصلحين والعاملين وهي أهمية أن يتنبّهوا لهذه الصفات الجامعة التي تُختَم بها الآيات المتعلقة بالعمل للدين والإسلام والدعوة إلى الله ﷻ، لأن هذه الصفات هي الجامعة للمعاني المتفرّقة التي تُذكر في الآيات، فيتمسّك المصلح بهذه الصفة الجامعة، ويستنير بمعالم المعاني المتفرّقة المذكورة ضمنها. ففي هذه الآيات مثلاً كانت الصفة الجامعة هي الصبر في قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، وأما المعالم التفصيلية فهي: عدم الضعف والوهن والاستكانة أمام المصائب.



المقطع الرابع
من سورة آل عمران:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ
عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا
لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١
وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ
مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ
لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢
إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ
أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا
مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ
ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ
غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ
لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا
هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ
ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
١٥٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥٥].

قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: احتياج المصلح الدائم إلى التذكير بخطورة عدوه والتحذير من الميل إليه وطاعته، وخاصة بعد المصائب والأزمات التي تصيب المصلحين من الأعداء، فإنّ النفوس قد تنكسر بعد هذه الهزائم فتميل إلى الدخول تحت سلطة أعدائها، ولذلك قال سبحانه في هذه الآيات: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

الثانية: المؤمن يحتاج إلى أن يكون على خوف دائم من أن يبطُلَ عمله أو يحبَط في حال انتكاسه مهما كانت سابقته حسنة وصالحة، فالله ﷻ يُخاطب المؤمنين الذين شاركوا مع النبي ﷺ يوم بدر ويوم أُحُد وصبروا وأوذوا، ويحذّرهم من أن يرتدّوا على أعقابهم فينقلبوا خاسرين.

الثالثة: أن العلم بالله واستحضار أسمائه وصفاته من أهم ما يثبّت المؤمن عند الأزمات، وهل ثبات المؤمنين إلا بذلك؟! فالله ﷻ حين ينهى عن إطاعة الكفار ويحذّر المؤمنين من مغبّة ذلك؛ يذكّرهم بصفاته سبحانه وأنه هو المولى وأنه خير الناصرين.

الرابعة: الرعب الذي ذكر الله ﷻ أنه سيلقيه في قلوب الكافرين هو عند جماعة من المفسرين: الرعب الذي أنزله على قريش حين انصرفت يوم أُحُد، ثمّ همّت أن ترجع إلى المدينة فتقاتل النبي ﷺ والمؤمنين مرة أخرى؛ استغلالاً للجراح التي أصابتهم، فأرسل الله لهم من يخوّفهم من جيش النبي ﷺ وأنه خرج في إثرهم في جمعٍ لم يُشهَد مثله ونحو ذلك، بينما كانت حقيقة الأمر أن النبي ﷺ انتدب جماعةً من خيار أصحابه للحاق بالمشركين حين بلغه خبر عودتهم، وهم الجماعة الذين أنزل الله ﷻ فيهم قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، وقد كانت جماعةً قليلة العدد نحو سبعين رجلاً.

والفائدة التي نأخذها من هذه القصة هي أن على المؤمنين بذلَ الأسباب ولو كانت يسيرة، وأن على الله ﷻ النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين. فبالحسابات المادية لم يكن هناك ما يجعل الكفار يخافون ويرهبون في ذلك المقام الذي انتصروا فيه، ولكنّ هذه معيّة الله ﷻ للمؤمنين. ولذلك فالذي ينبغي على المؤمنين أن يسعوا دائما إلى تحقيق ما يمكنهم من الأسباب، وفعل ما يمكنهم من الواجبات، مصاحبين ذلك بالصبر والتقوى واليقين، فيروا بذلك من توفيق الله ﷻ ما لا يُقاس بالحسابات المادية.

الخامسة: أن تحقيق التوحيد يُثمِرُ الشجاعة والثبات والأمان القلبي، وأن وجود الشرك عند الإنسان يؤدي إلى الخوف والجبن والرعب، وذلك أنه ﷻ قد ربط في هذه الآية بين الرعب الذي يلقيه في قلوب المشركين وبين الشرك الذي لديهم، ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

[الأنعام: ٨٢]، والظلم فسّره النبي ﷺ بالشرك.

قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: أن وعْد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بالنصر هو وعدٌ مشروطٌ بأعمال وصفات ينبغي أن يكون عليها المؤمنون، وإلا فإنّ وصْفَ الإيمان وحده لا يكفي لتحقّق النصر، فهاهنا في هذه الآية التي تتحدث عن غزوة أُحُد، يبيّن الله سبحانه وتعالى أنه صَدَق وعده ونصر جنده في أولّ النهار، وذلك بما حصل للمؤمنين من علوٍّ وقتلٍ للمشركين وهو معنى قوله: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: تقتلونهم، ومن المعلوم في السِّيَر أن حملة راية المشركين قد قُتِلوا واحداً تلوَ الآخر في مقتلةٍ قلّ نظيرها لمثل هؤلاء من حملة الراية، لكن هذا النصر لم يستمر بسبب تغيّر الصفات وتخلّف الشروط التي حصلت بعد ذلك في نفس اليوم، إذ تخلّى الرماة من أهل الجبل عن موقعهم الذي أكّد عليهم الرسول ﷺ أن يثبتوا فيه، فعصوا وأرادوا الدنيا التي هي الغنائم، ونسوا أمر الله ورسوله، فأدالَ اللهُ المشركين على المسلمين. وفي هذا من الفوائد والعبر الأمر العظيم.

الثانية: أهمية فهم السنن الإلهية وأنها سنن تتداخل في المحل الواحد،

ففي هذا المحل الذي هو يوم أُحُد، تحققت سنة النصر أولاً، ثم تحققت سنة المداولة، وقد مرّ معنا في هذه السورة قوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وكان المقصود ما حصل يوم أُحُد، وتحققت سنة الإمهال والاستدراج للكفار، وقد أشار الله إليها أيضا في آيات آل عمران المتعلقة بأُحُد فقال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فهاهنا اجتمعت السنن، وتداخلت الحكم الإلهية في ذلك اليوم العظيم والحدث الكبير.

ومن الثمرات التي تحققت: زيادة يقين المؤمنين بمعيّة الله ونصره؛ إذ أدالهم على المشركين أولَ اليوم مع قلّة عددهم، ثم تحققت ثمرة تعزيز قيمة طاعة الرسول ﷺ، وخطورة المعصية في السياقات الإصلاحية وخطورة التنازع والفشل. ومن الثمرات التي تحققت كذلك ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم، واتخاذ الشهداء واصطفاؤهم، وازدياد المشركين من موجبات الإهلاك والعقاب والعذاب.

الثالثة: أن الله ﷻ يربّي عباده المؤمنين على أن الثمرات التي تتحقق في جهادهم في سبيله كلّها من عنده، وأنّ الشر الذي يحصل فإنما هو بسببهم، بينما العزّ والنصر والخير والغلَبة والـمَنَعة والأمَنَة كلّها منه، وتأمل في سياق هذه الآية، ستجد أنها وإن كانت آية واحدةً إلا أن مقدار الألفاظ التي فيها نسبةُ الأمور لله كبير، وهي: ﴿صَدَقَكُمُ﴾ ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ ﴿أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ ﴿عَفَا عَنكُمْ﴾ ثم ختمها سبحانه بكلمة جامعة وهي: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا يذكّر بما أنزله يومَ بدرٍ في سورة الأنفال في قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا

رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ولذلك حين يتدبر الإنسان في آيات الكتاب العزيز المتعلقة بالتدافع بين الحق والباطل ونصْرِ المؤمنين وإعلاء كلمتهم، سيجد أن الله يبيّن أن كل ذلك إنما هو بقدره وإذنه، وحكمته وقوّته وقهره. وهذا فيه فائدة مهمة وهي إدامة التعلّق بالله ﷻ، وأن يعمل المصلح وهو مؤمن بهذه الحقيقة مما يثمر دوام الاستمداد منه ﷻ.

الرابعة: أنّ محبة الدنيا وإرادتها من أهم الأسباب التي توقِع المصلحين في الفشل، وذلك في قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ ولذلك فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه إنما خاف على أصحابه بعد وفاته الدنيا، فعَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي فَرَطُكُمْ على الحَوْضِ، وإنَّ عَرْضَهُ كما بيْنَ أيْلَةَ إلى الجُحْفَةِ، إنِّي لَسْتُ أخْشَى عَلَيْكُمْ أنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، ولَكِنِّي أخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيا أنْ تَنافَسُوا فِيها، وتَقْتَتِلُوا، فَتَهْلِكُوا، كما هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ»(١).

وكذلك نجد أن النبي ﷺ قد أخبرنا أنّ حبّ الدنيا من أهم أسباب ما وقعْنَا فيه من تكالب الأعداء وعدم قدرتنا على دفعهم، وذلك في قوله ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ» فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»(٢).

وقد يؤثر حبُّ الدنيا على أُناس مؤمنين صالحين مصلحين عاملين باذلين، وممن لهم سابقُ تضحيةٍ وبذل، كما وقع لبعض أصحاب النبي ﷺ يوم أُحد،

(١) رواه البخاري (٤٠٤٢)، ومسلم (٢٢٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) وأحمد (٢٢٣٩٧)

حين انصرف من انصرف منهم لإرادته الدنيا، بينما نجد أنّ من ثبت من أصحاب النبي ﷺ إنما ثبت لمعنى إرادة الآخرة، كما قال ﷻ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾، وهذا يفيد أن دوام استحضار الآخرة من أهم ما يعين على الثبات، وأنه كلما قلّ استحضار الآخرة، وبقيَ تأثير الدنيا حاضراً في القلب؛ كان المصلح على خطرٍ أن يُغلَب من داخله بسبب هذه المحبة الدنيوية.

ولذلك فإن من أعظم أسباب الوقاية من التزعزع أثناء الأزمات الكبرى أن يُربّى المصلحون على تعظيم الآخرة ودوام استحضارها، واليقين بذلك، كما قال الله ﷻ في سورة البقرة عن الثابتين مع طالوت، بعد أن تراجع من تراجع وتأخر من تأخر، قال سبحانه عن الثابتين مبيّنا السبب الذي من أجله ثبتوا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾، وهذا يبيّن أنهم إنما قالوا ذلك وثبتوا بعد تراجع من تراجع؛ لأنهم يظنون أنهم ملاقو الله، وقولُه: ﴿يَظُنُّونَ﴾ أيْ: يوقنون، فدلّ ذلك على أن اليقين بلقاء الله من أعظم ما يعين المصلح على الثبات أمام الأزمات وإن قلّت الأدوات، كما قلّت عند طالوت وجنوده، ولكنهم ليقينهم بلقاء الله قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ثم قال الله عنهم: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فالقضية مرتبطة بإذن الله وعونه ومدده الذي ينزل على الموقنين الثابتين الصابرين.

الخامسة: في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ تأكيدٌ لمعنى دوام الابتلاء في حياة المؤمنين، وذلك لأن الصحابة الذين ابتُلُوا في هذه المعركة، لم يكن هذا أول ابتلاءاتهم، بل كانوا قد ابتلوا قبل ذلك، وعاش كثيرٌ منهم أنواع البلاء في مكة والتعذيب والقهر والتسلّط من المشركين، حتى قال

قائلهم: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ ألا تستنصر لنا؟[(١)]، ثم لما وصلوا إلى المدينة أكّد الله عليهم معنى دوام استمرار الابتلاء، فقال ﷻ في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ثم في يوم أُحُد يعيد الله تأكيد هذا المعنى فيقول: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، وهذا يدلّ على أنّ لكلّ مرحلةٍ بلاؤها، ولكلّ زمانٍ امتحانه، وحتى إذا جاءت مرحلة التمكين والوراثة، فلا ينقطع فيها الابتلاء، كما قال ﷻ: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فهذه الآية متعلقة بالاستخلاف والوراثة وإهلاك المجرمين، ومع ذلك ظلّ معنى الابتلاء باقياً فيها، وذلك في قوله ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، فينبغي للمؤمن أن يدرك أن حياته دائرة بين التكليف والابتلاء.

وأما الجزاء -عقوبةً أو ثواباً- فقد يأتي شيء منه في الدنيا، لكنه لن يكون بتمامه إلا في الآخرة حين تنتهي الابتلاءات تماماً ولا يبقى إلا الجزاء، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

السادسة: في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أن الله ﷻ يحفظ حسنات المؤمنين، ويعاملهم بمقتضى العدل والرحمة والعفو، فإن المؤمنين الذين تولّوا يوم التقى الجمعان قد ارتكبوا ذنباً عظيماً جداً، وذلك أنّ الله سبحانه كان قد قدّم لهم -في سورة الأنفال بعد يوم بدر- التحذير الشديد والوعيد المخيف في جزاء الفرار من الزحف،

(١) انظر: صحيح البخاري: (٦٩٤٣).

فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]، فالذين فرّوا في ذلك اليوم كان لديهم تحذيرٌ مسبق لمثل هذا العمل، ومما زاد الأمر شناعةً أنّ الرسول ﷺ كان مصاباً في ذلك اليوم، وكان يدعوهم ويناديهم، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾، ومع ذلك فرّ من فرّ منهم تحت حرارة السيوف، وهذا ذنبٌ عظيمٌ كبير، ولكنّ الله ﷻ برحمته يعلم ما في قلوبهم من الإيمان، ويعلم قدر الابتلاءات التي مروا بها، وعظَم حبهم لله ورسوله ﷺ، ويعلم صلواتهم وأذكارهم ودعاءهم، فلم يضيّع لهم ذلك بسبب هذا الذنب، فعفا عنهم وطيّب خواطرهم بقوله: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡ﴾، ثم بيّن أن هذا الفضل منه إنما هو للمؤمنين ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وبيّن بعد ذلك أنواعاً من الفضل التي أعطاهم إياها على الرغم مما حصل، كما سيأتي في الآيات القادمة بإذن الله.

ومما نستفيده من هذه الآيات على المستوى العملي: ميزان تقييم الناس، فمن كان من أهل الإيمان والصلاح والبذل والعمل ونصرة الدين والتضحية في سبيل الله، ثم وقع منه شيء من الذنوب -ولو كان كبيراً-، فإنه لا ينبغي أن يُنسى فضله أو أن يُجحد خيره، بل يُعاتب على قدر خطئه، وقد يُعاقب، ولكن بدون إسقاطٍ أو إلغاء لخيره السابق وفضله.

قوله ﷻ:

﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

الفوائد:

الأولى: أن الطبع البشري المقتضي للخوف والجبن عند الشدائد قد يغلِبُ المؤمن أحيانا، بل قد يدفعه إلى عدم الاستجابة للتذكير والوعظ والتنبيه، تحت سياط ضغط الشعور والجبلّة، وذلك أن من فرّ من المؤمنين يوم أُحُد ممن وصفهم الله في هذه الآية بأنهم يُصعِدون ولا يلوون على أحد، كانوا قد سمعوا نداء النبي ﷺ وهم يفرّون وهو يقول لهم: إليَّ عباد الله، وهو قوله سبحانه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ ومع ذلك لم يستجب منهم سوى ثلّة قليلة أحاطت بالنبي ﷺ وأحدقت به، قيل إنهم كانوا بحدود الأربعين رجلاً، وهذا كلّه يدل على أنّ اللحظات التي يتكالب فيها الأعداء وتشتدّ فيها حرارة السيف وتفوح منها رائحة الموت هي لحظات عصيبة جداً، قد تسلبُ الإنسان القدرة على التفكير واتخاذ القرار الصحيح بمقتضى الإيمان، إلا إذا غولِبَت هذه الطبيعةُ والجبلّة بصخرة اليقين الثابتة التي يستحضر الإنسان فيها لقاء الله ﷻ في كل حين، وهذا ما حصل مع الذين ثبتوا مع النبي ﷺ إذ ذاك.

الثانية: في قوله سبحانه: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ وذلك أنّ الله ﷻ عاقب الصحابة الذين فرّوا عن النبي ﷺ بأن جعل في قلوبهم الغم والحزن والأسى،

بل وجعل ما أصابهم أنواعاً من الغموم لا غمّا واحداً، كما قال الشيخ ابن سعدي ﵀ في بيان أنواع الغموم التي أصابتهم: (غمٌّ بفوات النصر، وفوات الغنيمة، وغمّ بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمداً ﷺ قد قُتل)[١]. وهذا يلفت انتباه المتفقّه في كتاب الله أن كثيراً من العقوبات على الأعمال والإثابة عليها قد تكون قلبية نفسية، فتكون من جهة العقاب هموماً وغموماً وأحزاناً، ومن جهة الثواب سكينةً وطمأنينة وإيمانا.

الثالثة: أن الله ﷻ وإن عاقب الفارّين من المؤمنين بالغم، إلا أنها كانت عقوبة مُكْتَنَفَةً بالرحمة، والذي يتأمل في آيات سورة آل عمران المتعلقة بسورة أُحُد يجد الفرق الكبير بين حديث الله عن المؤمنين الذين زلّوا تحت سياط الشعور الآني بالرغبة أو الرهبة، وبين حديثه عن المنافقين الذين جبنوا في أنفسهم وخذّلوا غيرهم وطعنوا وشكّكوا وذلك للمرض الذي في قلوبهم.

فالله ﷻ مع كونه قد عاقب المؤمنين بالغم إلا أنه جعل هذا الغم مكتنفاً بالرحمة، فجعل الغموم الصغيرة تذوب أمام الغمّ الأكبر الذي هو خبر مقتل النبي ﷺ، فلما سيطر على المؤمنين هذا الغم الأكبر ثم انكشف زيفه فعلموا أن الخبر غير صحيحٍ، انقشعت -مع زوال هذا الغم الأكبر- الغموم الصغرى من فوات الغنيمة وفوات النصر والقتل الذي حصل في الصحابة، كما قال ابن سعدي: (ولكن الله -بلطفه وحسن نظره لعباده- جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيرا لهم، فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والظفر، ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسلي

(١) تفسير السعدي: (١٥٢).

عن كل مصيبة ومحنة، فلله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾)[1].

الرابعة: أهمية الارتباط الدائم بالأسماء والصفات في فهم الأحداث والوقائع التي تجري في الصراع بين الحق والباطل، فهاهنا نجد أن الله ﷻ بعد أن بيّن لنا ما قدّره على المؤمنين، وما أجراه من العقوبات النفسية الداخلية، ربط ذلك بعلمه وخبرته ﷻ فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾، .وهكذا على طول الطريق في هذه الآيات سنجد مدى ارتباطها بالأسماء والصفات، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن، عينٌ منه على الوقائع والأحداث، وعين أخرى على أسماء الله وصفاته ليربط بين الأمرين.

(١) تفسير السعدي: (١٥٢).

قوله ﷻ:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

الفوائد:

الأولى: كما بيّن الله ﷻ لنا أنه عاقب الفارّين من الصحابة بعقوبة نفسية داخلية وهي الغم، فقد بيّن لنا هنا أنه أثاب المؤمنين بعد ذلك بثواب نفسيّ داخليّ كذلك وهو الأمنة، وهذا يؤكد ما سلف ذكره من أن كثيراً من الثواب والعقاب يكون قلبياً داخلياً وليس بالضرورة أن يكون مادياً خارجياً.

الثانية: في قوله ﷻ: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يبيّن الله ﷻ أنّ هذا النعاس الذي كان أَمَنَةً وسكينةً أنزلها الله على قلوب المؤمنين، إنما غشِيَ طائفة من الحاضرين في ذلك اليوم، وهي الطائفة المؤمنة الموقنة، التي ارتفع عنها همّ نفسها، فلم تكن محور اهتمامهم، إذ كانوا يعوّلون على وعد الله وخَبَرِهِ ونصره، فبِقَدر ارتفاع همّهم عن أنفسهم إلى يقينهم بالله؛ أثابهم الله أن أنزل عليهم من السكينة والأمَنَة والنعاس ما جعلهم يغفون ويأخذون حظّاً من الراحة في ذلك اليوم العصيب، حتى إنّ أحدهم كان يسقط السيف من

يده من النعاس، وأما الآخرون فأهمّتهم أنفسهم خوفاً وقلقاً ومحاذرة ورعباً، فلم تنزل عليهم تلك الأمنَة ولم يصبهم ذلك النعاس، فالذي تهمُّهُ نفسه كيف له أن ينام في مثل ذلك اليوم؟!.

الثالثة: في قوله سبحانه: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ فائدة وهي أن من أهم أسباب تثبيت الله للمؤمنين هو حسن ظنّهم به في أوقات الأزمات، ومن أهم أسباب الخذلان عند الأزمات إساءة الظن بالله، وقد بيّن ابن كثير معنى ظنّ الجاهلية فقال: (اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصَلَة، وأن الإسلامَ قد باد وأهلَه، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة)[1]، وقد تكرر ذكر سوء الظن بالله عند المنافقين وقت الأزمات فقال ﷻ في سورة الفتح: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ [الفتح: ٦] وقوله: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الفتح: ١٢]، ولذلك فإن من أعظم ما ينبغي التذكير به عند أحوال التدافع بين الحق والباطل وأوقات الابتلاءات: إحسان الظن بالله واجتناب ظنّ الجاهلية.

الرابعة: في قوله سبحانه: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾ هذه الجُمَلْ متعلقة بالمنافقين، ومن يتأمل في كتاب الله ﷻ يجد كثرة ذكر المنافقين في سياق الجهاد في سبيل الله، وفي ميادين التدافع بين الحق والباطل، كما في هذه السورة -سورة آل عمران- التي تكرر فيها ذكر المنافقين في الآيات المتعلقة بيوم أُحُد، مثل هذه الآيات في قوله ﷻ: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ وفي غيرها

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٨).

من الآيات كذلك، بل قد جعل الله ﷻ كشفَ المنافقين وإظهار أحوالهم حكمة من الحِكَم المترتبة على ما جرى من المصيبة يوم أُحُد، كما قال سبحانه: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فانكشاف أحوال المنافقين من الحِكَم التي يقدّر الله لأجلها بعض المصائب والأقدار المؤلمة.

وكذلك جرى ذكر المنافقين في القرآن في سورة الأحزاب في آياتٍ متعددة كشفت أحوالهم، وكذلك في سورة التوبة، حتى سُمّيت بالفاضحة أي: التي فضحت المنافقين، وهي أيضا متعلقة بالجهاد في سبيل الله يوم تبوك، وكذلك في سورة الأنفال أُشيرَ إلى المنافقين وإن لم يكثر الحديث عنهم؛ لكون ذلك في أول الإسلام قبل إظهار المنافقينَ نفاقَهُم، فقد كانوا يعلنون الكفر ويجهرون به، إلى أن أعزّ الله الإسلام يوم بدر فجنحوا بعدها إلى النفاق.

الخامسة: في قوله سبحانه: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ بيانٌ واضحٌ أنّ الله ﷻ يريد أن يبتليَ المؤمنين ويخرج ما في صدورهم وينقّيَ قلوبهم من الأدران والمعتقدات الفاسدة والظنون السيئة، وهذا التمحيص الذي تحصل من خلاله هذه التصفية لا يكون إلّا بالآلام، وهذه الآلام في الغالب تكون ناتجة عن كيد الأعداء وسطوتهم المادية والمعنوية، فأما المادية فبالحروب والتعذيب والسجن ونحوها، والمعنوية كما في أحوال المنافقين بالشبهات والإرجاف وإثارة الظنون السيئة بالله ﷻ. ففي مثل هذه الأزمات تُمحَّص القلوب وتُزكّى وتُنقّى، وهذا من مقاصد تقدير الشدائد والابتلاءات، ومن الحكم المرتبطة بسنّة المداولة.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

الفوائد:

الأولى: في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ من المعلوم أن الذين تولّوا هم أناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل الإيمان، وممن كان له في الإسلام سابقة، وقد قدّم لهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تحذيراً من هذا الفعل قبل أن يفعلوه بفترة وجيزة، وذلك في سورة الأنفال في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]، وهذا يدل على أنّ المؤمن قد يقع في الذنوب والمعاصي الكبيرة، لأن الفرار من الزحف كبيرة خاصة مع رسول الله ﷺ وخاصة أنه دعاهم إلى الثبات في نفس ذلك ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

لكن الموقف من ذنوب المؤمنين ينبغي أن يكون موقفاً متّزناً، فلا يُغَضُّ الطرف عن الخطأ لأن من ارتكبه مؤمن، وفي نفس الوقت لا يُسقَط هذا المؤمن وتُمحَى حسناته لأنه وقع في الخطأ، وقد أتى بعض الخوارج إلى عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا طاعنينَ في عثمان بسبب هذا الذنب، كما قال عثمان بن موهَب: (جاء رجل من أهل مصر، حج البيت، فرأى قوما جلوسا، فقال: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا

ابن عمر، إني سائلك عن شيء فحدثني، هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم قال: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم قال: تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم قال: الله أكبر. قال ابن عمر: تعال أبيّن لك؛ أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه»، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده، فقال: «هذه لعثمان» فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك)[١].

ونعود لنقول إن الله ﷻ قد بيّن لنا المنهج العدل في التعامل مع أخطاء المؤمنين في هذه الآية، حيث بيّن فيها خطأهم وسبب الخطأ، ثم بيّن أنه عفا عنهم سبحانه.

فكلُّ خطأ يُتعامل فيه بحسب درجته وسياقه ومعطياته، والمؤمن يُتصَوَّر منه الذنب، ولا شك أنه ينقص من إيمانه بقدر هذا الذنب، ولكن الذنب لا يسلبُ الإيمانَ من العبد بالكليّة، بل تُحفَظ للعبد مقاماته الصالحة، وخاصة منها ما كان في نُصرة الإسلام، فلهذه المقامات أثرٌ عظيم في العفو عن الأخطاء، ومن أهم الأدلة على ذلك ما حصل من حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وكان أحدَ الذين أبلَوا بلاءً حسناً يوم أُحُد، وكان من أهل بدر، ولكنه وقع منه -بعد ذلك بسنين- ذنبٌ عظيم في مُكاتَبة المشركين، وإخبارهم بتحرّك رسول الله ﷺ، بعد

(١) رواه البخاري: (٣٦٩٨).

أن حرِص ﷺ على إخفاء هذا التحرك، ولكن الله ورسوله قد حفظا له سابقته في نُصرة الدين يوم بدر، فقال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين طلب قتله: «وما يدريك لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[(١)].

الثانية: في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ فائدة عظيمة، وهي: أثر الذنوب على الثبات عند الأزمات والشدائد، فالله سبحانه وتعالى يخبرنا في هذه الآية أن الصحابة الذين فرّوا يوم أُحُد ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ أي إنما أوقعهم الشيطان في هذا الفرار بسبب بعض ذنوبهم، وقد قيل إن الذنوب المقصودة هنا هي ذنوب سابقة حصلت منهم قبل يوم أُحُد ولكن أثرها كان في يوم أُحُد، وقيل إن المقصود هو ذنب المخالفة في نفس يوم أُحُد، وعلى كلتي الحالتين فهذه الآية تثبت خطورة الذنب وتأثيره السلبي على الثبات.

الثالثة: هي أن الشيطان يتربص بالإنسان المؤمن على كل أحواله، ولا ينتهي تربص الشيطان بالمؤمن إذا سلك طريق الإصلاح أو الجهاد في سبيل الله، ومن ظنّ من أصحاب هذه الأعمال أنه في مأمن فقد أخطأ في ظنّه، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يبيّن أن الذي أوقع الذين فرّوا من أصحاب النبي ﷺ يوم أُحُد إنما هو الشيطان، مع كونهم من أصحاب السابقة والعمل للدين والجهاد في سبيل الله، وهذا يبيّن خطورة مداخل الشيطان على الصالحين، ولذلك ينبغي على المؤمن الحذر والتنبّه، واتّخاذ الشيطان عدوًّا، ودوام الاستعاذة بالله منه، ولذلك كان النبي ﷺ يستعيذ من الشيطان في مقامات كثيرة، ويعلّم أصحابه ذلك، ومنها

(١) رواه البخاري: (٣٠٠٧)، ومسلم: (٢٤٩٤).

في كل صباح ومساء، وذلك في قوله ﷺ: «اللَّهمَّ فاطرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيبِ والشَّهادةِ، رَبَّ كلِّ شيءٍ ومَلِيكَهُ، أشهَدُ أن لا إلهَ إلّا أنتَ، أعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ نَفْسي، وشرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ»[1]، وكذلك في الاستعاذة قبل تلاوة القرآن، وعند دخول الخلاء، وغير ذلك.



(١) أخرجه أبو داود: (٥٠٦٧)، والترمذي: (٣٢٩٢)، والنسائي: (٧٦٩٩).

المقطع الخامس
من سورة آل عمران:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي
قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ
تُحۡشَرُونَ ١٥٨ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ
حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا
ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٦-١٦٠]

قوله سبحانه وتعالى:
﴿يَا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾

الفوائد:

الأولى: في قوله سبحانه: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: تكرر في سورة آل عمران في سياق يوم أُحُد التحذير من طاعة الكافرين أو التشبه بهم، وهذا يذكّر المؤمنين بالمفارقة الواضحة بين العقيدتَين والمنهجَين والطريقَين، فطريق الإيمان لـهُ مرجعيةٌ ومعالم وغاية تختلف عن مرجعية ومعالم وغايات طريق الكافرين،

والمؤمن في طريقه الإصلاحي يحتاج إلى تعزيز الاستغناء المنهجي بمرجعية طريقه ومعالمه وغايته عن المرجعيات والمنهجيات الأخرى، ومن هذه المعالم الفارقة بين المؤمنين والكفّار هو ما ذكره الله في هذه الآية، وهو: الإيمان بالقدر والتسليم لما قضاه الله ﷻ وقدّره.

الثانية: في قوله ﷻ: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾: ذكر سبحانه في هذه الآية الأثر السيّء المترتّب على عدم الإيمان بالقدر، وذلك أن هؤلاء المشركين يستبعدون المعنى القدَري في المصائب، ويعتمدون على تدبيرهم ونظرهم وآرائهم، ولذلك قالوا في هذه الآية لإخوانهم: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾، والنتيجة المترتبة على هذه المقولة هي الحسرة في القلوب، لأنهم يرون أنهم هم السبب في حصول ذلك، والله ﷻ يحذّر المؤمنين من سلوك هذا المسلك، ويذكرهم بالحقائق التي تقودهم إلى التسليم بقضاء الله وقدره فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾، وقبل ذلك بآيتين قال سبحانه: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾، فهذا تأكيد لأهمية الإيمان بقضاء الله وقدره وعدم الاتكال على الرأي والدوران في فلكه مما يقود إلى الحسرة والاعتراض على القدر.

ولذلك فإنّ من أهم ما ينبغي أن يستحضره المصلح في سياق عمله الإصلاحي أن يكون إيمانه بالقدر حاضراً دائما، حتى لو اجتهد المصلح اجتهادا ثم تبيّن له أنه خطأ، ولكنه كان مجتهداً متوكلاً على الله مؤمناً به؛ فإنه ينبغي ألا يجعل اللوم على نفسه وألا يؤدي ذلك إلى الحسرة في القلب، وإنما يؤمن بقضاء الله وقدره، ثم يستفيد من هذه التجربة لتصحيح ما يمكن تصحيحه في المستقبل.

قوله ﷻ:
﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾

الفوائد:

الأولى: في هاتين الآيتين فائدة عظيمة جداً في معالجة إرجاف الكفار الذين قالوا ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ ومعالجة قول المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ وذلك بإعادة ضبط المعايير المتعلقة بالدنيا والآخرة، وأن الخيرية والنجاح والفوز الحقيقي ليس هو بمقدار السلامة البدنية والبقاء في هذه الدنيا، بل المعيار الحقيقي هو المغفرة من الله ﷻ والرحمة والرضا، والتي من أهم ما يحققها القتال في سبيل الله، ولذلك فإن مما يعين على تجاوز إرجاف المرجفين وتخذيل المنافقين في مقامات نصرة الدين: الالتفات إلى الدار الآخرة وتذكر ما عند الله، وأن الإنسان إذا قُتل في سبيل الله أو مات فما يناله من مغفرة الله ورحمته هو خير مما يناله من جمع الأموال والممتلكات في الدنيا واكتساب الملذات.

ثم يبيّن الله لهم حقيقةً جامعة بين الذين يُقتلون في سبيل الله ويبذلون أرواحهم وبين الذين يموتون موتاً عادياً، وهي حقيقة الفناء ثم الحشر، فكل شيء في هذه الدنيا زائل، وكل من عليها فان، والجميع إلى الله صائر، وهذا مما يعين الإنسان على تجاوز مثل هذه التخذيلات والتثبيطات التي يكاد يقول

المنافقون من خلالها إنهم باقون خالدون غير فانين، فيذكّرهم الله بهذه الحقيقة: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾، وإذا كان الحال كذلك، وأن الإنسان فانٍ، وأنه إلى الله راجع؛ فليفكر في النتيجة الأخروية أكثر من تفكيره في النتيجة الدنيوية.

قوله ﷻ:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: جملة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ تدلّ على حال عظيمة للنبي ﷺ أكسبها الله إياها برحمته، وذلك أنه بعد كلّ ما ناله يوم أُحُد، من الإصابة والجراح وفقدان الأحبة والأصحاب، وكان من أهم أسباب ذلك فرار من فرّ من أصحابه وعصيانهم له؛ فإنه ﷺ لانَ لهم بعد ذلك كلّه، وعفا عنهم، واحتمل خطأهم، ولم يواجههم بالتعنيف والشدة، وكان ذلك -كما قال البقاعي ؒ- أمراً خارقاً للعادة في هذا الاحتمال وفي هذه الرحمة[1]، وكل ذلك إنما هو برحمة الله لنبيه ولأصحاب نبيه، إذْ جعل الله هذه الرحمة في قلبه فعاد بها على أصحابه، خاصة أنه أصابهم من الهم والغم والحزن والنَصَب ما كان شديداً عليهم، فتداركهم الله برحمته بأن جعل نبيه ﷺ يلين لهم ويتغاضى، ولا يقف عند هذا الخطأ وإن كان جسيماً كبيراً، فاللهم لك الحمد على رحمتك، واللهم

(١) انظر: تفسير البقاعي: (٥/ ١٠٦).

صلّ وسلّم على نبيك.

الثانية: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ في هذه الجملة من الفائدة أن على أئمة المسلمين وقادة المصلحين المتبعين للنبي ﷺ أن يبتعدوا عن الشدة وقسوة القلب والفظاظة في التعامل مع المؤمنين من أتباعهم، وأن يلزموا اللين ولو رأوا من أتباعهم تقصيراً أو وقوعاً في بعض الذنوب، فإن النبي ﷺ وهو النبي الكريم الخاتم، لو كان فظاً غليظ القلب لانفضّ أصحابه من حوله حتى مع وجود الوحي معه، فكيف لو كان الأمر دون ذلك؟ فهذه سنة أئمة المصلحين المتبعين للأنبياء؛ يجب أن يكون لديهم من الحلم والصبر ولين الجانب وخفض الجناح للمؤمنين ما يجعلهم أهلاً للإمامة في الدين، كما قال ابن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: (فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالا لأمر الله، وجذبا لعباد الله لدين الله. ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان)(١).

وذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالرحمة واللين في هذه الآية وبقوله ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ ليس خاصًّا ما جرى يوم أُحُد، وإنما المقصود به عموم

(١) تفسير السعدي: (١٥٤).

تعامل النبي ﷺ وسياسته للأمة، ويدخل في ذلك المشركون والمنافقون وغيرهم، كما قال ابن عاشور: (وَالْعَرَبُ أُمَّةٌ عُرِفَتْ بِالْأَنَفَةِ، وَإِبَاءِ الضَّيْمِ، وَسَلَامَةِ الْفِطْرَةِ، وَسُرْعَةِ الْفَهْمِ، وَهُمُ الْمُتَلَقُّونَ الْأَوَّلُونَ لِلدِّينِ، فَلَمْ تَكُنْ تَلِيقُ بِهِمُ الشِّدَّةُ وَالْغِلْظَةُ، وَلَكِنَّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى اسْتِنْزَالِ طَائِرِهِمْ فِي تَبْلِيغِ الشَّرِيعَةِ لَهُمْ، لِيَتَجَنَّبُوا بِذَلِكَ الْمُكَابَرَةَ الَّتِي هِيَ الْحَائِلُ الْوَحِيدُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِذْعَانِ إِلَى الْحَقِّ. وَوَرَدَ أَنَّ صفح النَّبِيء ﷺ وَعَفْوَهُ وَرَحْمَتَهُ كَانَ سَبَبًا فِي دُخُولِ كَثِيرٍ فِي الْإِسْلَامِ، كَمَا ذَكَرَ بَعْضُ ذَلِكَ عِيَاضٌ فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ، فَضَمِيرُ لَهُمْ عَائِدٌ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى مَقَامِ التَّشْرِيعِ وَسِيَاسَةِ الْأُمَّةِ، وَلَيْسَ عَائِدًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ عَصَوْا أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، لِأَنَّهُ لَا يُنَاسِبُ قَوْلَهُ بَعْدَهُ: لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ، إِذْ لَا يُظَنُّ ذَلِكَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَلِأَنَّهُ لَا يُنَاسِبُ قَوْلَهُ بَعْدَهُ: وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ إِذَا كَانَ الْمُرَادُ الْمُشَاوَرَةَ لِلِاسْتِعَانَةِ بِآرَائِهِمْ، بَلِ الْمَعْنَى: لَوْ كُنْتَ فَظًّا لَنَفَرَكَ كَثِيرٌ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لَكَ فَهَلَكُوا، أَوْ يَكُونُ الضَّمِيرُ عَائِدًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ الْمُعَبَّرِ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ فَالْمَعْنَى: وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا لَأَعْلَنُوا الْكُفْرَ وَتَفَرَّقُوا عَنْكَ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّكَ لِنْتَ لَهُمْ فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ خَاصَّةً، لِأَنَّ قَوْلَهُ بَعْدَهُ: وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ إِلَخْ يُنَافِي ذَلِكَ الْمحْمَل.)[١]، وعلى كلّ الأحوال فالمقصود هو أهمية لين الجانب والرحمة وخفض الجناح واحتمال الأذى لكلّ مَن يتبّع النبي ﷺ في إمامة الناس وسياستهم وهدايتهم.

الثالثة: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ في هذه الجملة من الفائدة: أهمية مشاورة ذوي الرأي من أهل الإيمان، فيما يتعلّق بالأعمال الإصلاحية والتدافع بين الحق والباطل والجهاد في سبيل الله، وما إلى ذلك من أمور إقامة الدين، وقد اختلف

(١) التحرير والتنوير: (٤/ ١٤٥ -١٤٦) لابن عاشور.

العلماء في توجيه الأمر للنبي ﷺ بأن يشاور أصحابه، على أقوال متعددة بيّنها الإمام الطبري رحمه الله تعالى، وذلك على النحو التالي:

(ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْمَعْنَى الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَمَرَ تَعَالَى ذِكْرُهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُشَاوِرَهُمْ، وَمَا الْمَعْنَى الَّذِي أَمَرَهُ أَنْ يُشَاوِرَهُمْ فِيهِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، بِمُشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ فِي مَكَايِدِ الْحَرْبِ وَعِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، تَطْيِيبًا مِنْهُ بِذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ، وَتَأَلُّفًا لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَلِيَرَوْا أَنَّهُ يَسْمَعُ مِنْهُمْ وَيَسْتَعِينُ بِهِمْ، وَإِنْ كَانَ اللهُ ﷻ قَدْ أَغْنَاهُ = بِتَدْبِيرِهِ لَهُ أُمُورَهُ وَسِيَاسَتِهِ إِيَّاهُ وَتَقْوِيمِهِ أَسْبَابَهُ = عَنْهُمْ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ أَمَرَهُ بِذَلِكَ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ لَهُ الرَّأْيُ وَأَصْوَبُ الْأُمُورِ فِي التَّدْبِيرِ، لِمَا عَلِمَ فِي الْمَشُورَةِ تَعَالَى ذِكْرُهُ مِنَ الْفَضْلِ. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا أَمَرَهُ اللهُ بِمُشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ فِيمَا أَمَرَهُ بِمُشَاوَرَتِهِمْ فِيهِ، مَعَ إِغْنَائِهِ بِتَقْوِيمِهِ إِيَّاهُ، وَتَدْبِيرِهِ أَسْبَابَهُ عَنْ آرَائِهِمْ، لِيَتَّبِعَهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَعْدِهِ، فِيمَا حَزَّ بِهِمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ، وَيَسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فِي ذَلِكَ، وَيَحْتَذُوا الْمِثَالَ الَّذِي رَأَوْهُ يَفْعَلُهُ فِي حَيَاتِهِ مِنْ مُشَاوَرَتِهِ فِي أُمُورِهِ مَعَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي هُوَ بِهَا مِنَ اللهِ أَصْحَابَهُ وَتُبَّاعَهُ فِي الْأَمْرِ، يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، فَيَتَشَاوَرُوا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يُصْدِرُوا عَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَلَؤُهُمْ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَشَاوَرُوا فِي أُمُورِ دِينِهِمْ مُتَّبِعِينَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ، لَمْ يُخْلِهِمُ اللهُ ﷻ مِنْ لُطْفِهِ، وَتَوْفِيقِهِ لِلصَّوَابِ مِنَ الرَّأْيِ وَالْقَوْلِ فِيهِ. قَالُوا: وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ ﷻ الَّذِي مَدَحَ بِهِ أَهْلَ الْإِيمَانِ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِمُشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ، فِيمَا حَزَّ بِهِ مِنْ أَمْرِ عَدُوِّهِ وَمَكَايِدِ حَرْبِهِ، تَأَلُّفًا مِنْهُ بِذَلِكَ مَنْ لَمْ تَكُنْ بَصِيرَتُهُ بِالْإِسْلَامِ الْبَصِيرَةَ الَّتِي يُؤْمَنُ عَلَيْهِ مَعَهَا فِتْنَةُ الشَّيْطَانِ، وَتَعْرِيفًا مِنْهُ أُمَّتَهُ مَا فِي

الْأُمُورِ الَّتِي تَحْزُبُهُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَمَطْلَبَهَا، لِيَقْتَدُوا بِهِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ النَّوَازِلِ الَّتِي تَنْزِلُ بِهِمْ، فَيَتَشَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، كَمَا كَانُوا يَرَوْنَهُ فِي حَيَاتِهِ ﷺ يَفْعَلُهُ، فَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ، فَإِنَّ اللهَ كَانَ يُعَرِّفُهُ مَطَالِبَ وُجُوهِ مَا حَزَبَهُ مِنَ الْأُمُورِ بِوَحْيِهِ أَوْ إِلْهَامِهِ إِيَّاهُ صَوَابَ ذَلِكَ. وَأَمَّا أُمَّتُهُ، فَإِنَّهُمْ إِذَا تَشَاوَرُوا مُسْتَنِّينَ بِفِعْلِهِ فِي ذَلِكَ عَلَى تَصَادُقٍ وَتَآخٍ لِلْحَقِّ وَإِرَادَةِ جَمِيعِهِمْ لِلصَّوَابِ، مِنْ غَيْرِ مَيْلٍ إِلَى هَوًى، وَلَا حَيْدٍ عَنْ هُدًى؛ فَاللهُ مُسَدِّدُهُمْ وَمُوَفِّقُهُمْ)[١].

وهذا الكلام الذي ذكره الإمام الطبري رحمه الله تعالى وجيه، إلا أنه عند التحقيق لا يُلغي حقيقة أن الرسول ﷺ كان يستشير أصحابه استشارةً يتطلّب منها الوصول إلى أفضل الرأي، وإن كان هو أكملهم عقلاً ورأياً وسداداً كما هو معلوم، ومن ذلك استشارته أصحابه يوم بدر ويوم أُحُد وفي حادثة الإفك، وغير ذلك من المقامات، وهذا كلّه فيما لم ينزل فيه وحيٌ، أو لم يعقد الله له في قلبه ﷺ عزيمةً واضحة مستقرة.

وقد اختلف العلماء في حُكم الشورى على من هم بعد النبي ﷺ من أئمة المسلمين، وقد توسّع الإمام ابن عاشور في تفسيره في ذكر بعض الأقوال في هذه المسألة فقال: (واختلف العلماء في مدلول قوله وشاورهم هل هو للوجوب أو للندب، وهل هو خاص بالرسول ﷺ أو عام له ولولاة أمور الأمة كلهم. فذهب المالكية إلى الوجوب والعموم، قال ابن خُوَيْز مَنداذُ: واجب على الولاة المشاورة، فيشاورون العلماء فيما يشكل من أمور الدين، ويشاورون وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ويشاورون وجوه الناس فيما يتعلق بمصالحهم، ويشاورون وجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق

(١) تفسير الطبري: (٦ – ١٨٨) باختصار.

بمصالح البلاد وعمارتها. وأشار ابن العربي إلى وجوبها بأنها سبب للصواب فقال: والشورى مسبار العقل وسبب الصواب. يشير إلى أننا مأمورون بتحري الصواب في مصالح الأمة، وما يتوقف عليه الواجب فهو واجب. وقال ابن عطية: الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب. وهذا ما لا اختلاف فيه. واعترض عليه ابن عرفة قوله: فعزله واجب، ولم يعترض كونها واجبة، إلا أن ابن عطية ذكر ذلك جازما به وابن عرفة اعترضه بالقياس على قول علماء الكلام بعدم عزل الأمير إذا ظهر فسقه، يعني ولا يزيد ترك الشورى على كونه ترك واجب فهو فسق. وقلت: من حفظ حجة على من لم يحفظ، وإن القياس فيه فارق معتبر فإن الفسق مضرته قاصرة على النفس وترك التشاور تعريض بمصالح المسلمين للخطر والفوات، ومحمل الأمر عند المالكية للوجوب والأصل عندهم عدم الخصوصية في التشريع إلا لدليل.

وعن الشافعي أن هذا للاستحباب، ولتقتدي به الأمة، وهو عام للرسول وغيره، تطييبا لنفوس أصحابه ورفعا لأقدارهم، وروي مثله عن قتادة، والربيع، وابن إسحاق. ورد هذا أبو بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي المشهور بالجصاص بقوله: لو كان معلوما عندهم أنهم إذا استفرغوا جهدهم في استنباط الصواب عما سئلوا عنه، ثم لم يكن معمولا به، لم يكن في ذلك تطييب لنفوسهم ولا رفع لأقدارهم، بل فيه إيحاشهم فالمشاورة لم تفد شيئا فهذا تأويل ساقط. وقال النووي، في صدر كتاب الصلاة من شرح مسلم: الصحيح عندهم وجوبها وهو المختار. وقال الفخر: ظاهر الأمر أنه للوجوب. ولم ينسب العلماء للحنفية قولا في هذا الأمر إلا أن الجصاص قال في كتابه أحكام القرآن عند قوله تعالى

وأمرهم شورى بينهم: هذا يدل على جلالة موقع المشورة لذكرها مع الإيمان وإقامة الصلاة ويدل على أننا مأمورون بها. ومجموع كلامي الجصاص يدل أن مذهب أبي حنيفة وجوبها.

ومن السلف من ذهب إلى اختصاص الوجوب بالنبيء ﷺ قاله الحسن وسفيان، وإنما أمر بها ليقتدي به غيره وتشيع في أمته وذلك فيما لا وحي فيه. وقد استشار النبيء ﷺ أصحابه في الخروج لبدر، وفي الخروج إلى أحد، وفي شأن الأسرى يوم بدر، واستشار عموم الجيش في رد سبي هوازن.

والظاهر أنها لا تكون في الأحكام الشرعية لأن الأحكام إن كانت بوحي فظاهر، وإن كانت اجتهادية، بناء على جواز الاجتهاد للنبيء ﷺ في الأمور الشرعية، فالاجتهاد إنما يستند للأدلة لا للآراء وإذا كان المجتهد من أمته لا يستشير في اجتهاده، فكيف تجب الاستشارة على النبيء ﷺ مع أنه لو اجتهد وقلنا بجواز الخطأ عليه فإنه لا يقر على خطأ باتفاق العلماء. ولم يزل من سنة خلفاء العدل استشارة أهل الرأي في مصالح المسلمين، قال البخاري في كتاب الاعتصام من صحيحه وكانت الأئمة بعد النبيء ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم، وكان القراء أصحاب مشورة عمر: كهولا كانوا أو شبانا، وكان وقافا عند كتاب الله (..).

واستشار أبو بكر في قتال أهل الردة، وتشاور الصحابة في أمر الخليفة بعد وفاة النبيء ﷺ، وجعل عمر رضي الله عنه الأمر شورى بعده في ستة عينهم، وجعل مراقبة الشورى لخمسين من الأنصار، وكان عمر يكتب لعماله يأمرهم بالتشاور، ويتمثل لهم في كتبه بقول الشاعر -لم أقف على اسمه-:

خليليّ ليس الرأي في صدر واحدٍ أشيرا عليّ بالذي تريان

هذا والشورى مما جبل الله عليه الإنسان في فطرته السليمة أي فطره على محبة الصلاح وتطلب النجاح في المساعي، (..)، ولم تزل الشورى في أطوار التاريخ رائجة في البشر، (..)، وإنما يلهي الناس عنها حب الاستبداد، وكراهية سماع ما يخالف الهوى، وذلك من انحراف الطبائع وليس من أصل الفطرة، ولذلك يهرع المستبد إلى الشورى عند المضائق.

قال ابن عبد البر في بهجة المجالس: الشورى محمودة عند عامة العلماء ولا أعلم أحدا رضي الاستبداد إلا رجل مفتون مخادع لمن يطلب عنده فائدة، أو رجل فاتك يحاول حين الغفلة، وكلا الرجلين فاسق)[1].

الرابعة: في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أهمية الجمع بين ثلاثة أمور، الأول: الاستشارة، الثاني: العزيمة وإمضاء الرأي، الثالث: التوكل على الله ﷻ، والجمع بين هذه الأمور الثلاثة مهم جدا للمصلح في عمله الإصلاحي.

مع أن قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا ينحصر في العزيمة الناشئة بعد الاستشارة، بل هو متعلّقٌ بمُطلَق العزيمة، سواءٌ أكانت منعقدة بعد استشارة، أو منعقدةً بعد رأيٍّ مجرّد، أو بعد إلهامٍ من الله ﷻ، لكن مع ذلك فإنّ هذه الآية فيها الجمع بين هذه الأمور الثلاثة المهمة جدا كما تقدّم، فلا يستغني بالاستشارة عن العزيمة، ولا بالعزيمة عن التوكل، وكذلك لا يستغني بالتوكل عن العزيمة وعن الاستشارة.

(١) التحرير والتنوير: (٤/ ١٤٨) باختصار.

قوله ﷻ :

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

الفوائد:

الأولى: هذه الآية من أهم الآيات المؤسسة لقضية التوكّل والتفويض إلى الله ﷻ والحرص على طاعته واجتناب معصيته في سياق العمل للإسلام والجهاد في سبيل الله ونصرة الدين، وهذه الآية يجب أن تكون عقيدةً راسخةً في قلب كل من يعمل لدين الله ﷻ، وتجعل المؤمن غير معظّم للأسباب في قلبه وإن كان مهتماً بها حريصاً على تحقيقها، وفي نفس الوقت هي آية تجعل المؤمن خائفاً من أثر الذنوب والمعاصي؛ لأنها هي السبب الذي به يَخذُلُ اللهُ عبدَهُ، فيتخلّف النصر بهذا الخذلان.

الثانية: هذه الآية حين نزلتْ على المؤمنين بعد يوم أُحُد، وقعتْ منهم موقعاً عظيماً قلّ أن يقع مثله إلا لمن مرّ بمثل تجربة الصحابة تلك، وذلك أنهم عايَشوا الأحداث، ورأوا التحقق التام للشقّ الأول من الآية ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾ يوم بدر، فشاهدوا كيف ينصر الله عباده المؤمنين ولو كانوا أذلّة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وعرفوا أنّ الله ﷻ إذا كان مع عباده المتوكلين عليه فإنه لن يقف أمامهم أحد، ورأوا تحقق ذلك أيضا في بداية يوم أُحُد، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وأما الشق الثاني في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ فقد رأوه بأعينهم يوم أُحُد كذلك، حين عصَوا وفشلوا وتنازعوا في الأمر، فرأوا كيف أدال الله المشركين عليهم ورفع نصره عنهم، فأُصيبُوا وقُتّلوا واغتمّوا.

والفائدةُ من ذلك كلّه أن يعلم المؤمن أنّ مقدار وضوح الآيات القرآنية ورسوخها في القلوب يتفاوت بقدر تفاوت العاملين في تجاربهم وأعمالهم التي نصروا فيها الدين، وعايَشوا فيها الأحوال الإيمانية على الواقع، وما رأوه من أقدار الله ﷻ، فالذي يتلقّى هذه الآية وقد رأى بعينيه نصر الله تعالى فإنها تَقَرُّ في قلبه، وترسخ بمستوى لا يتحقق لمن لم يرَ ويُعاين مثل ذلك، وهذا يذكّر بما أشار إليه الإمام الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] حين بيّن أن الفقه في الدين هنا هو بمعاينة نصر الله ﷻ للمؤمنين وغلَبته لأعدائهم، وفي ذلك من الفقه في الدين ما لا يتأتّى بمجرد الحقائق النظرية، فقال رحمه الله تعالى: (ليتفقه الطائفة النافرة بما تعاين من نصر الله أهلَ دينه وأصحابَ رسوله، على أهل عداوته والكفر به، فيفقه بذلك من مُعاينته حقيقةَ علم أمر الإسلام وظهوره على الأديان، من لم يكن فقهه)[1].



(١) تفسير الطبري: (١٢/ ٨٢).

المقطع السادس
من سورة آل عمران:

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ
مُّبِينٍ ١٦٤ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ
عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ
فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ
ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ
بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ
لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل
عمران: ١٦٤-١٦٨].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾

الفوائد:

الأولى: في هذه الآيات المتعلقة بمعركة أُحُد، وفي آيات الأنفال المتعلقة بغزوة بدر، وفي آيات سورة الأحزاب المتعلقة بمعركة الخندق، هناك أمر مشتركٌ فيها وهو التأكيد على طاعة الرسول ﷺ، والاستجابة له والامتثال لأمره والاقتداء

به، ومعرفة قدره وشأنه والنظر إلى أحواله، كما قال ﷻ في سورة الأنفال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقال أيضاً: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقال سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقد يؤخذ من هذا مركزية الاقتداء بالنبي ﷺ والائتساء به في جميع أحواله، وخاصة عند القتال ونصرة الدين والعمل للإسلام، وفي سياق الصبر والبذل والتضحية، فإن النبي ﷺ في جميع سيرته كان أول الثابتين وأول الصابرين وأول المجاهدين، وأعلَمَ الناس بالله.

ومن المهم لمن يتطلّب الإصلاح والعمل للدين أن يجعل الهدي العملي للنبي ﷺ حاضراً في تصوراته، وأن يكون هو الأنموذج التطبيقيَّ الكامل الذي فيه امتثالُ الحقائق القرآنية التي يقررها الله ﷻ. وهذا من أهم الأسباب التي رفعت من شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما في موقفه يوم الحديبية حين اضطربت الأحوال، حتى لحِقَ هذا الاضطرابُ من لحق من كبار أصحاب رسول الله ﷺ كعمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه تجلّت لديه هذه الحقيقة ناصعةً فقال لعمر: «الزم غرزه فوالله إنه على الحق»(١) مع أن أبا بكرٍ لم يكن عارفاً بمآلات ما فعله النبي ﷺ على وجه التفصيل، ولكنه كان ممتثلاً لهذا المعنى، وهذا يؤكّد مركزية هدي الأنبياء في السياق الإصلاحي.

(١) انظر: سيرة ابن هشام: (٢/ ٣١٧).

قوله ﷻ:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

الفوائد:

الأولى: في قوله ﷻ: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ المقصود بذلك ما حصل للمؤمنين يوم بدر من قتلِ سبعين من المشركين وأسرِ سبعين آخرين، والذي يتأمل في آيات القرآن وفي السيرة النبوية يجد الارتباط الواضح بين يوم بَدرٍ ويوم أُحُد، فكانت أُحُد هي المتممة للدروس المنهجية والعقدية العميقة المتعلقة ببدر.

وقوله سبحانه: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ فيه تذكير للمؤمنين بنصرِ الله لهم يوم بَدر، كما ذكّرهم بذلك في أول الآيات المتعلقة بيوم أُحُد في سورة آل عمران بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ومن الفوائد التي تترتّب على المعايشة السابقة لمعاني النصر والهزيمة: وجود الرصيد النفسي المعين على الصبر عند الانكسار، وذلك بتذكّر الآلام التي أُصيب بها أعداء المسلمين كذلك، فإذا كان المسلمون قد أُصيبوا يوم أُحُد، فقد أصابوا المشركين قبل ذلك يوم بدر كما في هذه الآية، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] وكما قال: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهذا المعنى يكون مفقوداً حين لا يكون هناك رصيد من السجال بين أهل الحق وأهل الباطل، وحين تكون الصولة دائما لأهل الباطل، ويكون أهل الحق

مستسلمين، فهذه هي المصيبة في النفس والدين معاً.

الثانية: في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ يربّي الله ﷻ أصحاب نبيه ﷺ بأن ما أصابهم من تلك الهزيمة إنما هو بسببهم ومن عند أنفسهم، وإن كان ذلك بتقدير الله ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، فهو بقدَرِ الله، ولكن قد جعل الله لكلّ شيء سبباً، فالسبب الذي أدّى إلى الهزيمة يوم أُحُد هو السبب الاختياري الذي فعله المسلمون من عند أنفسهم بعصيانهم وفشلهم.

وفي هذا معنى مهم في البحث في أحوالنا المعاصرة عن أسباب تخلّفنا وهزائمنا، فالذي يُلقي باللوم دائماً على أعداء الله بأنهم هم السبب في كل شيء، دون البحث عن الأسباب الداخلية التي يمكن تغييرها، فهو مقصر في البحث والنظر. والذي يتأمل في القرآن في مثل هذه الآيات يجد أن الله ﷻ يُوجّه انتباه المؤمنين وعنايَتهم إلى الأسباب الداخلية المتعلّقة بإيمانهم وتوكلّهم وطاعتهم لله ورسوله، فإن أحسنوا فيها واتّخذوا ما يمكنهم من الأسباب الخارجية، فلا يبقى لهم بعد ذلك إلا التسليم لقَدَر الله.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: في قوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ دليلٌ على أنّ ما يصيب المسلمين من مصائب وكوارث وأزمات -وخاصة من جهة تسليط الأعداء عليهم- فإنما هو بإذن الله تعالى وقدَرِه وإرادته الكونية، فلا يخرج شيء عن قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والمطلوب في علاقة المؤمن بالقدر أن يصبر على المصائب لأنه يعلم أنها مُقدّرة، ثم يعمل بواجب الشرع تجاه الأمر القدري، ولا يستسلم للمصائب المقدّرة بحجة أنها مقدّرة، وإنما يجب عليه أن يجمع بين الشرع والقدر، فلله الخلق والأمر، فهو الذي قدّر وهو الذي أمر عباده بفعل ما يجب عليهم تجاه هذه الأقدار.

وقد ضلّ قوم في هذا الباب فجعلوا الأمر القدري هو الأمر الشرعي، فقالوا: إذا كان الله قد قدّر علينا تسليط الأعداء؛ فإنّ الرضا بالقدر يقتضي عدم جهادهم وعدم مقاومتهم، وكذلك قالوا في الفساد والمنكرات التي تكون في الأرض من جهة الحكّام الفجّار أو غيرهم، وهذا ضلال مبين وهو حجّة من

حجج المشركين المذكورين في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥].

الثانية: في قوله ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ بيانٌ لِحكمَة من أعظم الحكم التي يقدّر الله لأجلها الأقدار المؤلمة على من يحبهم، وهي التمييز بين المؤمنين والمنافقين، وقد مرّ معنا شيء من ذلك، وسيأتي فيه مزيدُ بيانٍ عند قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

الثالثة: قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ من موضوعات القرآن المهمة التي يربّي الله عليها عباده المؤمنين: بيان سبيل المجرمين، وقد تكرّر ذكره في كتاب الله ﷻ.

والمجرمون الذين يذكرهم الله ﷻ في كتابه ويبيّن سبلهم وطرائقهم وأساليبهم وأدواتهم وبواعث أعمالهم على أصناف: فمنهم المشركون، ومنهم أهل الكتاب، ومنهم المنافقون، ومنهم الشياطين، ولكل صنفٍ من هؤلاء سبيلٌ بيّنه الله ﷻ وذكَر معالمه.

فأما سبيل المنافقين فكثيراً ما يذكره الله ﷻ في سياق التدافع بين الحق والباطل، ولذلك نجد أنّ ذِكرهم قد تكرّر في سورة الأحزاب والتوبة وآل عمران، وذلك لأن عَوار المنافقين يظهر أكثر ما يظهر في أوقات الابتلاءات والشدائد لشدة جبنهم وحبّهم الدنيا وكراهيتهم الموت، ولتربّصهم بالمؤمنين،

فهم إذا جاء العدو يرون فيه الأمل في القضاء على المسلمين، فتبدو البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.

وهاهنا في هذه الآيات يبيّن الله لنا شيئا من سبيلهم وهو: تخذيلهم المؤمنين عن مقاتلة الكفار والمجرمين، فهم أولاً قعدوا عن مقاومة الأعداء فلم يقاتلوهم، ثم لم يكتفوا بالقعود، بل خذّلوا المؤمنين، وذكروا في سبيل تبرير قعودهم حججاً واهية، كما بيّنها الله في هذه الآية بقوله: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾، ولذلك فإنّ من أهم ما ينبغي على المؤمنين والمصلحين: كشفَ سبيل المنافقين، والحذر منهم ومن أفعالهم، خاصة في سياق الصراع بين الحق والباطل؛ حتى لا يكونوا سبباً من أسباب الهزيمة.

وإنّ من الخلل الكبير أن يتربّى كثيرٌ من طلاب العلم على موضوعات العلوم الشرعية دون أن يأخذوا نصيبَهم من موضوع الوعي بسبيل المجرمين، فهم بذلك قد أخلّوا بموضوعٍ قرآنيٍّ أساسي، ولذلك نرى في الواقع غفلةَ كثيرٍ منهم، واستغلال الأعداء لبعضهم.



المقطع السابع
من سورة آل عمران:

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩
فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ
أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ
لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ
لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ
قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣
فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ
عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٤].

قوله سبحانه وتعالى:
﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩
فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم
مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ
وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

في هذه الآيات بيان الفضل العظيم للشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله، ومن يتأمل في النصوص الشرعية التي وردت في فضل الشهداء فإنه تعظُم رغبته في بلوغ هذه المنزلة وتحقيق هذه المكانة.

والشهادة اصطفاء من الله كما قال سبحانه: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، والشهداء -كما بيّن الله في هذه الآية- أحياءٌ عند ربهم يرزقون، وقد جاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود بيان شيء من صفة هذه الحياة البرزخية للشهداء، حين سُئل عن هذه الآية فقال رضي الله عنه: «أمَا إنَّا قَدْ سَألنَا عَنْ ذلك فقال: أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوفِ طَيْرٍ خَضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا، حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»(١).

ومن أعظم ما ورد في الشهداء من فضل: ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا أحَدٌ يَدْخُل الجنَّة يُحِبُّ أن يَرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشَّهيد، يَتَمَنَّى أن يَرجع إلى الدنيا، فيُقْتَل عَشْر مَرَّاتٍ؛ لما يَرى من الكرامة»(٢). وفي رواية: «لما يرى من فَضْل الشَّهادة»(٣). ولك أن تتخيل ما هذه الكرامة التي رآها الشهيد منذ مقتله إلى دخول الجنة في حياة البرزخ حتى يتمنى أن يرجع من الجنة إلى الدنيا -لا ليأخذ شيئا من نعيمها فهو لا يحتاج إلى ذلك لأنه يعيش في الجنة- وإنما ليُقتل مرة أخرى حتى يعيش الكرامة التي عاشها حين قُتل في سبيل الله؛ ولذلك تمنّى رسول الله ﷺ أن يُقتل في سبيل الله فقال: (والّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه لَودِدْتُ أنِّي أغزو في سبيلِ

(١) رواه مسلم: (١٨٨٧).
(٢) رواه البخاري: (٢٨١٧)، ومسلم: (١٨٧٧).
(٣) رواه البخاري: (٢٦٤٢).

الله فأُقتَلُ ثـمَّ أحيا فأُقتَلُ)[١] قال ذلك ثلاثًا. بل وقد تمنى النبي ﷺ أن يُقتل في يوم أُحُد تحديداً، كما أخرج الإمام أحمد في مسنده أن النبي ﷺ قال: «أما والله لَوَدِدتُ أني غودِرت مع أصحابِ نُحْصِ الجبلِ»[٢]، ونُحْصُ الجبل هو سفحُه وهو المكان الذي قُتل فيه شهداء أُحُد.

والإيمان بذلك والتصديق به يدفع المؤمن إلى تمنّي هذه المنزلة، ولذلك ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[٣]، فهذه المنزلة العظيمة والكرامة الجسيمة هي من أعظم ما يعين المؤمن على الثبات عند التحام الصفوف واشتداد القتال؛ لإيمانه بأنّ ما عند الله خير وأبقى، وأنه ولو خسر روحه فإنه لن يخسر كل شيء، بل يؤمن أنه مقدم إلى رضوان الله وكرامته.

والذي يستقرّ في قلبه هذا الإيمان يكون من أعظم الثابتين، بل قد يكون من الـمُقبِلين وقت الإدبار والـمُقدمين حين التراجع، كما فعل أنس بن النضر يوم أُحُد لـمّا رأى تأخر أصحابه وفرار بعضهم ورأى ما فعله المشركون بالمسلمين، قال: «اللَّهُمَّ إنِّي أعْتَذِرُ إلَيْكَ ممَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي المُسْلِمِينَ، وأَبْرَأُ إلَيْكَ ممَّا جَاءَ به الـمُشْرِكُونَ فَتَقَدَّمَ بسَيْفِهِ فَلَقِيَ سَعْدَ بنَ مُعَاذٍ، فَقالَ: أيْنَ يا سَعْدُ، إنِّي أجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ، فَمَضَى فَقُتِلَ، فَما عُرِفَ حتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بشَامَةٍ أوْ ببَنَانِهِ، وبِهِ بضْعٌ وثَمانُونَ مِن طَعْنَةٍ وضَرْبَةٍ ورَمْيَةٍ بسَهْمٍ»[٤].

(١) رواه البخاري: (٣١٢٣)، ومسلم: (١٨٧٦).
(٢) أخرجه أحمد: (١٥٠٢٥) في المسند.
(٣) رواه مسلم: (١٩٠٩).
(٤) رواه البخاري: (٤٠٤٨)، ومسلم: (١٩٠٣).

وهذا المعنى من أعظم ما ينبغي أن يُربّى عليه المصلحون، أن يربَّوا على حبّ الشهادة في سبيل الله، وعلى أنّ ما عند الله خير وأبقى، فإنّ هذا من أعظم ما يمنحهم الطمأنينة والثبات في طريقهم، طريقِ العمل للدين.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:
﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

الفوائد:

الأولى: قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ يُعلَم منه أنّ الله عَزَّوَجَلَّ قد يُضاعف أجر العمل حين يُؤدّى في ظروف صعبة أو في زمن صعب، فيَكتُب لمن يقوم بهذا العمل من الأجور ما لا يكتبه لمن عمل نفس العمل في وقت آخر، لذلك قال عن السابقين للإسلام: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

وكذلك في هذه الآية التي أثنى الله فيها على الصحابة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ وذلك أنّهم رضوان الله عليهم -وكانوا لا تزال دماؤهم تنزف من جراح يوم أُحُد، وقد أصابهم ما أصابهم من الغمّ والحزن والشدة وفقدان الأكابر- إلا أنهم حين ناداهم رسول الله ﷺ ليقوموا

إلى منطقة حمراء الأسد لردّ عدوان المشركين الذين أرادوا الرجوع بعد أن انصرفوا من مكة؛ ليقضوا على ما بقي من جيش المسلمين، فهؤلاء الصحابة الذين استجابوا لأمر الرسول ﷺ بعد كل تلك الدماء والجراح: لهم أجرٌ عند الله عظيم، ولذلك بيّن الله شرف عملهم في هذه الآية.

وفي ذلك من الفائدة كذلك بيان لمنزلة أصحاب رسول الله ﷺ وفضلهم وعظم شأنهم رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

الثانية: في قوله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، في هذه الآية درس عظيم للمؤمنين بأنْ يكون من أهم أحوالهم عند شدة الخوف من كيد الناس وشرّهم: تحقيق التوكل على الله سبحانه وتعالى.

وتحقيق هذا التوكل من أعظم صور زيادة الإيمان، وهو يتضمنّ إحسان الظنّ بالله والثقةَ بكفايتِه ومعيّته مع شدة الخوف وكثرة الأعداء؛ ولذلك فإن من أعظم المواطن التي يزيد فيها إيمان المؤمن: هذه المواطن التي يُخاف فيها من الأعداء، وقد لا تتأتّى مثل هذه المقامات الإيمانية في أحوال الرخاء.



المقطع الثامن والأخير
من سورة آل عمران:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥
وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ
حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ
ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ
إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ
أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾

[آل عمران: ١٧٥-١٧٩].

قوله ﷻ:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

الفوائد:

الأولى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾، المراد بهذه الآية أنّ الشيطان يحاول أن يجعل لأوليائه هيبةً في القلوب بحيث يُخافونَ ويُخشَونَ، فمعنى: يخوّف أولياءه أي: يُخوِّفُكُم أولياءَه، كما قال أئمة التفسير. ولذلك فليس كلّ ما يجده المؤمن من هيبةٍ لأعدائه يكون بالضرورة أثراً نفسياً حقيقياً متعلقاً بالأسباب الواقعية، بل قد يكون هذا إنما هو من الشيطان، الذي يحرص على

جعل أوليائه محلًّا للرهبة والخوف عند المؤمنين؛ ولذلك نجد أنّ من يغلق على نفسه مداخل الشيطان، ويتعلق بالله سبحانه، ويتوكل عليه، ويخافه وحده؛ نجد أنّه لا يهاب أعداء الله ولا يجد لهم في نفسه الرهبة، بل بعكس ذلك؛ همُ الذين يهابونَهُ ويخشونَهُ.

الثانية: في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بيانُ أنّ استقرار الخوف من الله ﷻ في قلب المؤمن: من أعظم ما يعينه على الثبات والإقدام وتجاوز الأزمات، وعدم الانكسار أمام التحديات، فقد جعل الله تعالى الوقاية من تخويف الشيطان أولياءَهُ: التذكير بالخوف منه ﷻ.

وقد ذكر الله ﷻ هذا المعنى في سورة المائدة في قصة خوف بني إسرائيل من الجبّارين وعدم دخولهم الأرض المقدسة، وفيها أبرز الله تعالى صفة الخوف منه في الثابتين الذين دَعَوا إلى دخول الباب على الأعداء، وعدم الخوف منهم أو التردد من ذلك، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فهذه من أعظم ثمرات الخوف من الله ﷻ.

قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٧ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

الفوائد:

الأولى: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى حال المؤمنين الذين قُتلوا في سبيله وأنهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وأنهم فرحون ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾، وبعد أن ذكر سبحانه حكمته في تقدير الابتلاءات، بعد ذلك كله يبيّن الله لعباده المؤمنين أنّ ما يرونه من أحوال الكفار والمنافقين المسارعين فيهم، من طول المهلة التي أُعطُوها، وما يتقلبون فيه من القوة والعافية؛ يبيّن أن ذلك كلَّه ليس خيراً لهم ولا أمراً يُفرح به، ولا هو حالٌ يستحقّ البقاء والعيش، بل إنّ ذلك كله إنما هو شرٌّ عريض ووبالٌ شديد على أولئك الكفّار، فإن المصيبة كل المصيبة أنّه سبحانه يريد ألّا يجعل لهم حظّاً في الآخرة، بل يريد لهم سبحانه أن يزدادوا إثماً، حتى يستحقوا مزيداً من العذاب والعقاب في الدنيا وفي الآخرة.

ولك أن تتخيل أنّ إنساناً يعيش في هذه الحياة متنعمّاً في عافية ورغد من العيش، وتكون إرادة الله فيه أن يزداد من الآثام ليزيد عليه العقوبة في جهنم، فهذا كله استدراج من الله سبحانه وتعالى وكيدٌ بأعدائه، فإنهم -في سياق هذا الاستدراج- لا يفهمون أنه مكرٌ بهم، وإنما يظنون أن ذلك كلَّهُ من الخير والعزّ والفلاح،

وقد قال سبحانه في سياق ذلك: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، فبيّن الله أنهم لا يشعرون بمكر الله بهم، وأنّ هذا الإملاء والإمهال إنما هو شرٌّ محضٌ عليهم. وهذا التصوّر مهم جداً للمؤمنين، لأنهم حين يرون علوّ الكفّار وشدة النكال الذي ألحقوه بالمؤمنين، يحتاجون إلى ما يسكّن غيظ قلوبهم بهذه العقيدة، التي يعلمون بها أن أحوال المشركين آيلةٌ إلى الشر والعذاب.

قوله ﷻ:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾

الفوائد:

الأولى: في هذه الآية بيانُ سنّة من سنن الله ﷻ، وذلك لأنها صُدّرت بأسلوب ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ﴾، وهذا الأسلوب إذا جاء في القرآن فإنه يدلّ على سنة من سنن الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

وهذه السنة المبيَّنة في هذه الآية هي سنة التمييز بين الحق والباطل، وإن شئت فقل: سنة الابتلاء التي يُراد منها التمييز بين الحق والباطل، فبَيْن الأمرين تداخُل.

فإنّ من عادة الله سبحانه أنه يميز بين الخبيث والطيب، ومن عادته أنه يبتلي عباده المؤمنين، ومن أهم ثمرات هذا الابتلاء: التمييز بين الخبيث والطيب، ولذلك حين فسّر الإمام الطبري هذه الآية ربطها بمعنى الابتلاء فقال: (وما كان الله ليطلعكم على ضمائر قلوب عباده، فتعرفوا المؤمن منهم من المنافق والكافر، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء -كما ميز بينهم بالبأساء يوم أحد- وجهاد عدوه، وما أشبه ذلك من صنوف المحن، حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم)[1].

والتمييزُ بين الحق والباطل والخبيث والطيب هو معنى قرآني محكَم، ومقصد من المقاصد الإلهية المتعلقة بكثير من الأقدار والأحكام، فالله ﷻ نهى بني إسرائيل عن أن يلبسوا الحق بالباطل، وقدّر الأقدار المؤلمة الشديدة على المؤمنين لكيلا يلتبس الحق بالباطل والخبيث بالطيب، وجعل الولاء بين المؤمنين وقطع الولاء بينهم وبين الكفار لِحكَم منها: ألّا يلتبس الحق بالباطل كما قال في سورة الأنفال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣] قال ابن كثير في الآية: (أي: إن لم تُجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض)[2].

وهذا يؤكّدُ أهمية الولاء والبراء وبيان الحق وكشف الباطل، ويبيّن خطورة المناهج التي تلبسُ الحقّ بالباطل، وتُقرّب الطيّب من الخبيث.

(١) تفسير الطبري: (٦/ ٢٦٤).
(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٨٧).

خاتمة:

أحمدُ الله ﷻ على توفيقه وفتحه في التأمّل في هذه الآيات العظيمة، وأسألهُ سبحانه أن ينفع بهذه الفوائد والعِبَر، وأن يتقبّلها وأن يُعينَ على إتمام هذه السلسلة من التدبّر لبقية آيات كتابه العزيز، المتعلّقة بمعالجة نفوس المصلحين والتدافع بين الحق والباطل.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليّت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميدٌ مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميدٌ مجيد.



المفكرة